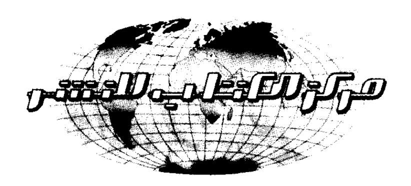
أبطال الجهاد
في الإسلام

مأمون غريب

مركز الكتاب للنشر



مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
ت: ٢٩٠٨٢٠٣-٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس-المنطقة السادسة- ت: ٢٧٢٣٣٩٨

أبطال الجهاد فى الإسلام

* مصعب بن عمير (حامل لواء الرسول)
* الحمزة بن عبدالمطلب (أسد الله)
* سعد بن أبى وقاص
* خالد بن الوليد
* عمرو بن العاص
* المثنى بن حارثة الشيبانى
* الإمام الحسين
* عبدالله بن الزبير
* قتيبة بن مسلم
* عبدالرحمن الغافقى (بطل بلاط الشهداء)



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾

(صدق الله العظيم)

[البقرة : ١٩٠، ١٩١]

مقدمة

من يقرأ تاريخ الإسلام ، منذ نشأته على يد محمد بن عبدالله آخر رسل الله ، إلى أيامنا هذه ، سوف تتوقفه فى مختلف العصور صور مشرقة أعظم ما يكون الإشراق ، تركت بصماتها التى لا تمحى فى ذاكرة الأيام.

وهذه الصور ليست مجرد مواقف رائعة لأناس وضعوا رءوسهم على أكفهم فى سبيل المبادئ التى آمنوا بها ، ولكنهم بجانب ذلك غيروا مسار البشرية كلها ، وأجبروا التاريخ أن يغير مجراه، ورسموا خريطة جديدة لعالم متطلع إلى كل ما هو أفضل وأروع وأعظم.

ما كان أحد يدور بخلده عندما خرج من بنى هاشم محمد بن عبدالله يدعو الناس إلى الإسلام ، أن هذه الدعوة ستشق طريقها رغم حصار المشركين لها ومحاربتهم لها ، وتوحد شبه الجزيرة العربية كلها تحت راية واحدة ، ثم تتصدى لأعتى الإمبراطوريات المعروفة آنذاك وتقهرها ، وتقيم على أنقاض الحضارة الفارسية والرومانية حضارة جديدة ، تقيم عالمًا جديدًا يعتنق التوحيد،

ويحقق شريعة الله ، وينشر فى ربوع البشرية كلها نور الله.

لم يكن أحد يصدق أن هؤلاء العرب الرحل ، الذين يملكون أدوات قتال بدائية، إذا قورنت بالترسانات العسكرية الرومانية والفارسية، ويجيدون حرب الصحراء، سوف يقاتلون إمبراطوريات بها جيوشها المنظمة المدربة ولها أمجادها العسكرية التاريخية. ولكن الإيمان فى القلوب صنع المعجزات ، فإذا بدولة الفرس تسقط تحت سنابك خيول جند الله ، وإذا بدولة الرومان تتقلص إمبراطوريتها بعد انتزاع مصر والشام والشمال الإفريقى منها، ولتصبح الدولة الإسلامية فى سنوات قليلة أقوى قوى العالم، فتكوِّن الجيوش ، وتصنع الأساطيل، وتملك السيطرة البحرية على البحر المتوسط، كما تمتلك السيطرة على تلك الأراضى الشاسعة الممتدة من المحيط الأطلنطى حتى أسوار الصين . . بل تتوغل فى داخل القارة الأوربية وتضم الأندلس، ويتطلع قائد الفتح موسى بن نصير إلى غزو أوربا ، لتصل جيوشه عن طريقها إلى عاصمة الخلافة الأموية فى دمشق. .

ولولا اعتراض الخليفة الوليد بن عبدالملك الذى كان يرى أن الإسلام عليه أن يوطد أركانه فى الدول المفتوحة ، وأن يعرف الناس أمور دينهم . . لولا إيمان الوليد بذلك ، ومنعه موسى بن

نصير من تحقيق حلمه الكبير لكانت أوربا كلها اليوم تحت راية الإسلام . .

ولذلك قرر المؤرخ الشهير «جيبون» فى كتابة تاريخ قيام الإمبراطورية الرومانية وسقوطها حقيقة القدرة العسكرية الهائلة للعرب عندما قال :

«إن انتصار المسلمين قد غطى مسافة تزيد عن ألف ميل من مرتفعات جبل طارق حتى شواطئ نهر اللورين . ولو تمكن العرب من قطع مسافة مماثلة كان يعنى ذلك الوصول إلى حدود بولندا ، أو مرتفعات اسكوتلندا ، فنهر الراين ليس أشق من نهر النيل أو الفرات ، وقد كان من المستطاع أن تصل السفن العربية دون قتال إلى مصب نهر التيمس» .

هذه الانتصارات على المستوى العسكرى كان يواكبها تقدم حضارى مذهل . . فقد كان الاجتهاد يشق طريقه هو الآخر فى تفسير كتاب الله وسنة رسوله ، وظهرت المذاهب الفقهية المختلفة . كما نقل المسلمون الفلسفة اليونانية وفسروها ، وحاول بعضهم التوفيق بين الفلسفة والدين ، أو بين العقل والنقل - كما يقولون - وعن طريق الترجمات العربية الفلسفية اليونانية وشرحها .

عرفت أوربا هذه الفلسفة ، ومن ثم ساعدت على النهضة الفكرية فى أوربا عندما بدأت تتحرك نحو التحضر والتقدم ونبذ الخرافات والأساطير التى عششت فى العقل الأوربى .. أى أن الحضارة الأوربية المعاصرة مدينة فى تقدمها للفكر الإسلامى.

إن دراسة حياة أبطال الإسلام الذى سجلوا أروع البطولات على جبال وسهول ووديان أوربا وآسيا وإفريقيا تلقى الضوء على أمجادنا التى يجب أن تبعث من جديد؛ لنخرج من دائرة العالم الثالث إلى دائرة المعالم المتقدم.

وليس هذا ردة إلى الماضى ، ولكن هذا يعطينا دفعة نحو التقدم فى عالم لا يعترف اليوم بالضعفاء والمتخلفين .. فالنظر إلى أمجادنا الماضية هو دعوة إلى المستقبل .. إلى الأخذ بالأسباب .. إلى أن نوغل فى فهم حضارة وتكنولوچيا العصر ، بجانب تلك الطاقة الهائلة التى تفتقدها حضارة الغرب .. وهى قوة الروح.

والواقع أن الحاضر هو لحظة سرعان ما تتحول إلى ماضٍ .. أن الزمن هو ماضٍ وحاضر يفضى إلى المستقبل .. والعاقل من يستوعب مسيرة التاريخ فيأخذ من ماضيه ما يدفعه نحو مشارف المستقبل.

مع هؤلاء الأبطال الأفذاذ الذين غيَّروا معالم التاريخ . . تعالَ نعش لحظات مع المجد والقوة ومسابقة الزمن مع تلك البطولات النادرة التى صنعت أمجادًا، وتاريخًا ؛ ليكون دافعًا إلى غد ملىء بالأمل لا التشاؤم . . بالتقدم لا التخلف . . بالبحث عن الذاتية الإسلامية لا الانسياق تحت مغمض الأعين أمام حضارة مادية بحتة.

إن قوة الدفع الهائلة التى يحققها الإسلام فى النفوس، وخلقه الإنسان السوى الذى يعرف حقوق ربه وحقوق نفسه وحقوق الآخرين، جديرة بأن تعود بنا إلى القوة ، لنكون مظلة أمن وسلام، لكل من ييمم وجه نحو المرافئ الدافئة ، وينطلق لا يبغى سوى رضوان الله، فيكون فى رضا من ربه ورضا من الناس.

مأمــون غــريب

حامل لواء الرسول

مصعب بن عمير

مصعب بن عمير
حامل لواء الرسول

كان يمشى فى شوارع مكة مختالاً بنفسه . . يمكن أن تتنسم عن بعد الروائح التى يتعطر بها . . فهو شاب فى مقتبل العمر . . جميل المحيا . . يتألق حيوية وشبابًا . . ولا يشغله من شواغل الحياة شىء . . فهو مُرَفَّه . . ما عرف شظف العيش . . ولا هزته فواجع الفقر . . فوالداه يحبانه . . ويحققان له كل ما تصبو إليه نفسه.

وكان أيضًا يمتاز بذكاء واضح . . فهو لبق . . سريع الخاطر . . حلو المنطق . . يستطيع أن يجذب محدثه بسهولة ويسر.

هذا الشاب هو مصعب بن عمير.

ولا أحد يعرف كيف كان سيصبح مستقبل هذا الشاب لو لم يشهد الرسالة المحمدية.

ربما كان واحدًا من أغنياء مكة الذين يرثون عن أسرهم المال والجاه . . وربما يترك آثارًا فى مجتمع مكة كإنسان تحبه النساء

لوسامته وذكائه وحسن مظهره.

ولكنه أبدًا ما كان سيصبح علمًا من أعلام العقيدة . . أو فارسًا من فرسان الجهاد . . أو شهيدًا تتحدث عن بطولته الأجيال . . لو أنه لم يدخل دين الإسلام . . ويكون له هذا الدور الباهر كداعية للدين الجديد . . أو سفير للإسلام عندما أرسله النبى ﷺ قبيل الهجرة إلى المدينة ليعلِّم مَنْ أسلم منهم أمور دينهم . . وكانوا لا يزيدون على اثنى عشر مسلمًا من الذين بايعوا النبى ﷺ بيعة العقبة الأولى . . فإذا بالإسلام ينتشر فى يثرب انتشارًا سريعًا بفضل هذا الداعية العظيم . . الذى عرف كيف يصل إلى قلوب الناس وعقولهم، ويوضح لهم ما فى الإسلام من قيم شريفة . . ومبادئ رفيعة . . ترفع الإنسان عن مستوى الأحقاد والضغائن . . وتحول الوحش فى أعماقه إلى ضمير يقظ . . يعرف حقوق ربه وحقوق نفسه وحقوق الآخرين.

ما كاد مصعب بن عمير . . أو مصعب الخير كما كان يناديه صحابة رسول الله . . ما كاد يسمع أن هناك دعوة جديدة ينادى بها محمد بن عبدالله . . وأن هذه الدعوة تسفه أحلام مكة ، وتسخر من آلهتها الصماء العمياء البكماء التى لا تنفع ولا تضر . . وأن العبادة يجب أن تكون لله وحده خالق كل شىء ، حتى

استهواه الدين الجديد، وخاصة بعد أن استمع إلى رسول الله ﷺ.. ووجد فى كلماته نورًا ينفذ إلى أعماق القلب، ويضىء الطريق نحو حياة أفضل .. ونحو معرفة الحقيقة الأزلية التى لا حقيقة سواها.

فلا ينبغى أن تكون العبودية لغير الله .

ولا دستور حقيقى يرسم المستقبل الباهر للإنسان والبشرية سوى منهج الله .. فلم يتردد وأعلن إسلامه.

ولم يكن الأمر سهلاً ولا هينًا .. فالتقاليد تعمى القلوب .. والعادات تحاول أن تحجب نور الله .. فوالدته - التى كثيرًا ما دللته - وجدت فى إسلام ابنها ما يهز كيانها الاجتماعى .. فهى لا تستطيع أن تتصور أن يصبح ابنها صابئًا فى نظر أهل مكة.

هكذا تصورت أمه «خناس بنت مالك». فلما علمت بما كان يخفيه ابنها عنها وأنه دخل فى زمرة المسلمين .. وأنه كان يلتقى برسول الإسلام فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ؛ حتى طار صوابه.. وقررت أن تثنى ابنها عن اعتقاده مهما كانت الظروف.. بل حتى لو أدى الأمر إلى حبسه إلى أن يموت فى سجنه.

ولنا أن نتصور مثل هذه الأم التى يمكنها أن تقتل كل مشاعر

الأمومة فى سبيل أن تعيد ابنها إلى ما كان عليه الآباء والأجداد.

بل لك أن تتصور قوة هذا المجتمع الجاهلى الذى رفض منطق العقل والمنطق .. ولم يرَ فى دعوة محمد بن عبدالله إلا أنها دعوة خطرة ستغير المجتمع ، وتقلبه رأسًا على عقب .. كما رأى هذا المجتمع الجاهلى أيضًا أن هذه الدعوة سترفع من مكانة بنى هاشم بين القبائل ، ومن ثم لا بد من محاربتها ووأدها ، فهو مجتمع لا يرى إلا ما تحت قدميه ، كما لا تتصور ما سوف تكون عليه حياتهم بعد أن تتوحد كلمتهم تحت لواء «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

لقد غشى الجهل عيونهم ، وعميت بصيرتهم ، فهان عليهم كل شىء.

فقد عاش مصعب فى السجن الذى فرضته عليه أمه ، إلى أن علم بأن النبى ﷺ أمر أتباعه بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجر إليها ، وقرر الهرب من سجنه إلى الحبشة. والمعروف أنه هاجر إليها مرتين ، وقد حاول أن يقنع أمه بالدخول فى الإسلام ، ولكنها أصرت على الشرك، غير أنها وجدت فى ابنها الذى غيَّره الإسلام كثيرًا شخصية أخرى ، فهو لم يعد ذلك الإنسان الذى يقابل كل الأمور بسلبية ، فقد قرر هذه المرة بعد أن عاد من دار هجرته فى

الحبشة أن يتصدى بالقوة لكل من يحاول أن يعترض طريقه، ولم تجد أمه أمام هذا الإصرار إلا أن تتركه لحال سبيله ، وربما لأنها قد وجدت ابنها لم يعد تهمه الحياة المترفة ، ولم يعد تهزه الثياب الغالية الثمن ، بل كل ما يهمه الجوهر. فروح الإيمان فى أعماقه، تجعل الدنيا فى عينيه لا تساوى شيئًا ، ومن ثم فهى وسيلته لعالم الخلود ، وليست غاية فى حد ذاتها.

ولقد قال عنه الرسول يوم رآه فى ثيابه المهلهلة ، وبعض أصحابه ينظرون إليه فى إشفاق:

«لقد رأيت مصعبًا هذا ، وما كان بمكة فتى أنعم عند أبويه منه. لقد ترك ذلك كله حبا لله ورسوله».

واختاره الرسول الكريم للذهاب إلى يثرب؛ ليعلِّم من دخل فى الإسلام فى بيعة العقبة الأولى (١٢رجلاً) الإسلام ، ووجد أهل يثرب فى رسول رسول الله تواضعًا وزهدًا وبعدًا عن الترف. ورأوا فيه أيضًا العقل الراجح المتفتح ، فإذا بالناس تقتنع بدعوة الإسلام ، حتى بلغ عددهم ٧٣ رجلاً ، وهم الذين جاءوا معه فى موسم الحج التالى. وقرر النبى مقابلتهم ، وكانت المقابلة بعيدة عن مكة بحوالى أربعة كيلو مترات؛ حتى لا يعرف مشركو مكة عنها شيئًا، فقد قابلهم الرسول الكريم وكان معه عمه العباس

ابن عبدالمطلب ، وتحت جنح الظلام حيث كان يسود الهدوء ، وليس يبدو من ظلام الليل ، وسكونه الموحش، سوى الأضواء الشاحبة، المنبعثة من القمر ، ليلتها عاهد هؤلاء الأنصار الرسول الكريم على الإسلام ، وكان ذلك عند العقبة.

وكانت هذه البيعة هى بيعة العقبة الثانية ، حينما اختار النبى منهم اثنى عشر نقيبًا؛ ليكونوا كُفَلاء على العهد الذى أخذه أهل يثرب على أنفسهم. وقد كانت بيعة العقبة هذه نقطة انطلاق هائلة، غيَّرت مسار التاريخ الإنسانى كله.

ولنضرب مثلاً :

كيف كان مصعب يستهوى الأفئدة لدخول الناس فى دين الله؟

جاءه يومًا أحد سادة يثرب وهو «أسيد بن حضير» يحمل سيفه، والغضب بادٍ على وجهه ، وقد استكثر أن يأتى مصعب ابن عمير ينشر دينه بين عشيرته ، واقترب منه وهو يتحدث عن الإسلام ، وأخذ يهدده ويزجره؛ ليكفَّ عن دعوته ، ونظر إلى سفير النبى، فرأى الإبتسامة تعلو شفتيه ، وهو ثابت لا يرتجف ولا يهتز من وعيده. وبهدوء قال مصعب:

«أو لا تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرنا قبلته ، وإن كرهته كففنا عنك ما تكرهه».

بهذه الدبلوماسية كانت لكلمات مصعب وقع السحر فى قلب الرجل ، حيث هدأ وانطفأ غضبه ، وأخذ يستمع إلى ما يقوله مصعب. إنه لا يدعو إلا إلى الفضيلة ، وصلة الرحم ، وكل ما هو جدير بالتقدير. واستمع إلى كلمات القرآن الكريم ، فإذا بها تنساب إلى أعماق نفسه ، وإذا به يدخل فى دين الله.

وأسلم بإسلام أسيد ، فيما بعد فى تاريخ الإسلام ، سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة.

ويأذن الله لرسول الله بالهجرة من مكة إلى المدينة؛ ليأخذ التاريخ الإسلامى مسارًا جديدًا. وفى المدينة يؤاخى الرسول الكريم بين الأوس والخزرج، وتتكون أول حكومة إسلامية ، ويتحول الإسلام إلى الحركة أكثر ، وإذا بمكة يجن جنونها ، فلم يعد فى استطاعتهم صدُّ تقدم الإسلام ، أو الحد من انتشاره فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية. فكان لا بد من الصراع المسلح. ومن هنا كانت غزوة بدر ، حيث زحفت قريش بجيش ضخم ، لم تألفه المعارك فى الجاهلية من قبل.

جيش يقترب عدد جنوده من الألف ، مزودين بالعتاد والسلاح والغرور أيضًا. يجابه المسلمون هذا الجيش الكثيف وعددهم يقل عن ثلث عدده ، ويدفعهم إيمان أرسخ من الجبال ، وكان يرفع

راية المهاجرين مصعب بن عمير ، وراية الخزرج الحباب بن المنذر، وراية الأوس سعد بن معاذ.

وبدأت المعركة بمبارزة بين مَنْ يمثل المسلمين ، ومن يمثل المشركين. . ارتفعت ثلاثة سيوف من صفوف المسلمين: سيف على بن أبى طالب ، وحمزة بن عبدالمطلب. وعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، وبرزت سيوف مكة الممثلة فى سيوف شيبة ، وعتبة ، والوليد ، وتمكن فرسان المسلمين من قتل الثلاثة ، وبدأت المعركة ضارية قاسية، يخوضها المسلمون بإيمان من يريد أن يشم رائحة الجنة. وبدأ جيش الأعداء يتخاذل ، ثم أخذ يولى الأدبار ، بعد أن قتل منهم سبعون رجلاً ، وأسر مثلهم.

وكان من بين القتلى عدو الله « أبوجهل».

وتريد مكة أن تثأر من هزيمة بدر ، فتخرج فى جيش هائل تحاول الهجوم على المسلمين فى المدينة ، ولكن النبى يقابلهم فى أحُد.

وتدور معركة قاسية ينتصر فيها المسلمون فى أول الأمر ، إلا أن الرماة خالفوا أمر الرسول ، وتركوا أماكنهم على جبل أحد؛ بغرض جمع الأسلاب ، فانتهز خالد بن الوليد قائد جيش المشركين الفرصة، وحاصر جيش المسلمين ، وكادت الدائرة أن تدور على المسلمين ، لولا استبسال الرسول الكريم ، وحوله

بعض الصحابة .

وكان يحمل لواء الرسول فى هذه المعركة أيضًا مصعب بن عمير، الذى حمل الراية ، وهو يقاتل دفاعًا عن دينه ، باستبسال عجيب، حتى تَكاثَرَ من حوله الأعداء ، وأخذوا يلتفون من حوله، فضربوا عضده الأيمن ، فرفع الراية بيده اليسرى فأصيب، فحمل الراية بعضديه ، وأخذ يصيح حاضا المسلمين على القتال، وهو يردد قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وظل مصعب يرسل نداءه المدوِّى ، فإذا بالحماسة تدب فى صفوف المسلمين ، مدافعين عن رسول الله ، إلى أن اخترق رمح ظهره، فوقع جسد هذا المؤمن العظيم مضرجًا فى دمائه ، بعد أن صعدت روحه إلى السماء.

وتنتهى المعركة، ويتفقد الرسول العظيم - رغم جراحه - أرض المعركة فى ذلك اليوم الحزين الذى سقط فيه كثير من الشهداء، منهم سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ، وسفير رسول الله فى المدينة المنورة مصعب بن عمير. كان الحزن يملأ قلب الرسول، وهو يرى كيف مثَّل المشركون بجثة عمه الشهيد حمزة، وكيف رأى صحابته مضرجين فى دمائهم على أرض المعركة. ولمحت

عيناه مصعبًا ، فذرفت الدموع من عينيه وقال: ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ثم قال وهو يرى الشهيد فى ثوبه البالى المرقع الذى كفن به :

«لقد رأيتك بمكة ، وما بها أرقَّ حلة ، ولا أحسن لِمَّةً منك ، ثم ها أنتذا شعث الرأس فى بردة».

ويدفن الجسد الطاهر ، وتبقى ذكراه عطرة توحى بكل ما هو عظيم وجليل ، ما بقى هناك تاريخ يردد ذكرى أبطال الجهاد العظام ، الذين داسوا الدنيا وعرضها الزائل من أجل لقاء الله. وما عند الله خير وأبقى.

***

أسد الله ورسوله

حمزة بن عبدالمطلب



حمزة بن عبدالمطلب

أسد الله ورسوله

كانت مكة تعيش حياتها التى ألفتها ، لا يهز هذه الحياة إلا تجارة قادمة من الشام أو من اليمن. ولا جديد إلا إذا جدَّ جديد ، كأن يقول شاعر قصيدة يكون لها صداها فى منتديات مكة ومجالسها. ما عدا ذلك فكل شىء عادى . . إلى أن تَهامَسَ الناس بأن دعوة جديدة يدعو إليها محمد بن عبدالله ، وأنه يطلب من الناس عبادة الله الواحد، الذى خلق كل شىء ، وإليه المصير.

ولم يأبه الناس أول الأمر كثيرا ، وما اعتقدوا أنها ستكون دعوة خطيرة ، سوف تهز المجتمع المكى من الأعماق ، ثم تهز شبه الجزيرة العربية كلها ، وبعدها سوف تغير خريطة العالم كله.

لم تكن مكة تتصور أن يُحدِث محمد بن عبدالله هذا التغيير الهائل فى حياتهم وحياة العالم ، فقد سمعوا ورأوا من قبل بعض الحنفاء الذين نبذوا عبادة الأصنام ، ورأوا أيضًا بعض الذين

وجدوا فى النصرانية الطريق السليم ، كما عرفوا أن فى يثرب اليهود الذين يعبدون الله على شريعة موسى عليه السلام.

ولكن سرعان ما تغيرت الأمور بسرعة شديدة ، وأصبح حديث الرسالة التى جاء بها محمد بن عبدالله ﷺ الشغل الشاغل، فلا حديث لهم إلا عن هذه الدعوة الجديدة ، التى تسفه دين الآباء والأجداد ، وتنبه الناس إلى فقدان إدراكهم ، عندما يعبدون من دون الله حجارة لا تنفع ولا تضر .

وهالهم أكثر أن هذه الدعوة لا تجعل الأسياد فوق رقاب العباد، ولكن لا فضل لإنسان على آخر إلا بالتقوى ، وأن العبد إذا آمن بالله ورسوله ، وعمل بالمنهج الذى يدعو إليه الرسول الكريم يكون أرفع درجات عند الله، من السيد الذى أشرك بالله بل يكون أرفع درجات عند ربه من الحر المسلم ، إذا كان أكثر منه تقوى لله.

لم يكن الأمر إذن بالسهولة التى تصورتها قريش فى أول الأمر، ولكن هالهم ما سمعوه عندما جمعهم رسول الله ﷺ عند جبل الصفا، وقال للناس: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تريد أن تُغير عليكم من وراء هذا الوادى أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا : نعم.. ما عهدنا عليك كذبًا .. فقال لهم: فإنى رسول الله إليكم جميعًا

بين يدى عذاب شديد» . .

ورد عليه عمه أبو لهب: تبا لك! ألهذا جمعتنا؟! ونزلت آيات القرآن الكريم: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [المسد: ١- ٥].

وبدأ الصراع على أشده بين الشرك والإيمان.

وعرفت بطحاء مكة ألوان التعذيب التى تعرَّضَ لها المؤمنون من رؤوس الشرك.

ولم يسلم النبى نفسه - رغم أنه من بنى هاشم - من بطش المشركين ، وكان على رأسهم «أبو جهل» عمرو بن هشام، وعمه «أبو لهب».

ورغم كل هذه الأحداث التى تجرى فى مكة ، فقد كان حمزة ابن عبدالمطلب يعيش حياته ، فارسًا يجيد القنص والصيد ، وكان يشاهد ويسمع عن دعوة ابن أخيه، ولكنه كان مشغولاً عن كل ذلك بالصيد، إلى أن سمع ذات يوم أن أبا جهل قد تعرَّضَ لابن أخيه بما يسوؤه ، فأخذته حمية العصبية ، واتجه بجواده يبحث عن عدو الله أبى جهل، فلما رآه عند الكعبة يتباهى بالأذى الذى

سببه للرسول ، ما كان من حمزة إلا أن شج رأسه، وهو يقول له: كيف تتعرض له وأنا على دينه؟

وأمام هيبة حمزة لاذ أبو جهل بالصمت المهين.

ودخل الحمزة الإسلام. وبدخوله زادت هيبة المسلمين. وما لبث أن دخل عمر بن الخطاب هو الآخر فى دين الإسلام. وعندما ذهب ابن الخطاب ليعلن إسلامه أمام الرسول الكريم - فى دار ابن أبى الأرقم- شعر المسلمون فى دار الأرقم أن مجىء عمر بن الخطاب إلى هذا المكان لا يبشر بالخير ، إلا أن حمزة بن عبدالمطلب طلب من الناس أن يهدؤوا . .فإذا جاء يعلن إسلامه فهذا خيرا له ، وللمسلمين ، وإذا كان يضمر شيئًا فسوف يقتله بسيفه.

وأسلم عمر بن الخطاب ، وكان يومًا مشهودًا من أيام التاريخ، حيث خرج المسلمون وعلى رأسهم الحمزة ، وعمر بن الخطاب جهارًا نهارًا ؛ ليعلنوا ولاءهم للدين الجديد.

وتمضى خُطا الأيام ، والنبى يجاهد جهادًا عظيمًا؛ لنشر دين الله، رغم كل ما يلاقيه من طغيان مكة وصلف زعمائها ، ونور الإسلام ينتشر ببطء ، ولكن رايته مرفوعة. وما أحدثه من أصداء عالية يهز هذا المجتمع الغارق فى جهالات الآباء والأجداد.

ويحدث ما لم يكن فى الحسبان ، عندما يهاجر النبى الكريم وصحابته إلى يثرب ، وتنقلب مكة ، وتنقلب كل الموازين وكل الحسابات ، وتأخذ الدعوة مسارًا حاسمًا ، ثم يجن جنون مكة عندما جاءها النذير ، بأن النبى تعرض لقافلة لها كان يقودها أبو سفيان، ويستعر أوار النار التى تأكل صدورهم ، حقدًا على النبى وصحابته ، وتُدَقُّ طبول الحرب. ورغم وصول أبى سفيان سالمًا بتجارة مكة، ورغم أن الأمر كان يمكن أن ينتهى عند هذا الحد، فإن دوافع الحقد والغضب كانت أعلى من نداء الحق، والعقل، فلم يستمعوا إلى أبى سفيان ، وقرروا خوض المعركة؛ حتى ينتهوا نهائيا من الدعوة وصاحبها ، فقد صوَّر لهم خيالهم المريض أنها فرصة للقضاء النهائى على الدين الجديد، وخاصة أن المئات من شباب مكة وشيوخها وكبار رجالاتها يلهبهم الحماس الغاضب والدافع الأعمى؛ للتخلص نهائيا من هذا الدين الذى طيَّر النوم من عيونهم. وتحركت الجموع الغاضبة لتهاجم المسلمين.

وعند بئر بدر ، عسكرت تلك الجموع الغاضبة ، التى تزيد عن الألف تهزهم نشوة القوة ، وهم يرون النبى فى جنده ، لا يمثلون إلا أقل من ثلث جيش الشرك.

واقتربت الساعات الحاسمة ..

ونظرة إلى أرض المعركة تعطى صورة لأهمية هذه المعركة الحاسمة فى تاريخ الإسلام .

فالوادى الذى تقوم عليه آبار بدر تطل عليه من الشمال والشرق جبال عالية ، وفى الجنوب توجد الصخور العاتية ، بينما الكثبان الرميلة منحدرة نحو الشرق والغرب ، وتمتلئ بالكثبان متجهة نحو البحر ، الليل عاصف ، وسرعان ما هبطت الأمطار ، وأصبح الصباح، وأشرقت الشمس، وكالعادة تبدأ المعركة بمبارزة شخصية، وترتفع من بين جيوش المسلمين سيوف حمزة بن عبدالمطلب ، وعلى بن أبى طالب، وعبيدة بن الجراح ، وكلهم من بنى هاشم .

ويخرج من صفوف الشرك شيبة وعتبة بن الوليد ، بينما كان يرفع أعلام المكيين بنو عبد الدار. ويجهز حمزة وعلى وعبيدة على أعدائهم ، وتبدأ المعركة حامية الوطيس ، وإذا بالقلة المؤمنة تحقق انتصارًا مذهلاً ، وكان الحمزة بن عبدالمطلب كالأسد الثائر، وسط المعمعة. إنه لا يحمل سيفًا ، ولكنه يحمل الموت مجسدًا فى سيفه. وتتهاوى الرقاب التى تحاول أن تتصدى له ، وتنجلى المعركة ، فإذا جثث المشركين تملأ الوادى ، وإذا بقادتهم الذين

كانوا ملء السمع والبصر مجندلون فى دمائهم ، وعلى رأسهم عدو الله أبو جهل.

سبعون قتيلاً على الرمال من أعداء الله . . وسبعون أسيرًا.

ويأمر النبى بدفن الموتى ، ويعود إلى المدينة ، وقد حقق الله وعده ، وتم النصر ، ولم يعد الإسلام فى موقف الدفاع ، بل أصبح يدير المعركة للتحرك والهجوم فى أى بقعة من شبه الجزيرة، وأصبحت كلمة الإسلام يُحسَب حسابها ، فلم تعد المشكلة هى الصراع بين مكة والمدينة ، بل تحولت الأمور بسرعة ، وأصبح الإسلام بيده زمام المبادرة ، وأصبح الحديث عنه على كل لسان ، ودخل فيه أناس كثيرون .

وما كانت مكة ، وقد مُنِيَتْ بكل هذه الهزيمة بقادرة على أن ترفع رأسها بين العرب ، بل أرادت أن تغسل عن نفسها عار الهزيمة. لقد عاد من عاد منهم كسير الجناح يريد الانتقام ، ومن مات ترك الحسرة والألم والرغبة فى الثأر بين أهله .

وانتعش الاقتصاد فى المدينة بعد هذه الغنائم التى آلت إلى المسلمين. ولم يكن قد بدأ العام الثالث من الهجرة ، حتى كانت قريش قد أعدت ثلاثة آلاف مقاتل تحاول القصاص عند «أُحد».

وكانت هند زوجة أبى سفيان - قائد هذا الجيش - تحض الناس على القتال ، وكان الغل يملأ قلبها، من حمزة، فهو قاتل أبيها عتبة. لقد خرجت هى الأخرى مع بعض النسوة يحرضن المشركين على القتال ، وكانت قد طلب من وحشى أن يقتل حمزة، ووعدته أن تحرره إذا فعل ذلك. وكان وحشى يجيد الرماية بالرمح.

ودارت معركة رهيبة عاتية ، وكانت هناك سيوف ثلاثة من أكثر السيوف حصدًا فى رؤوس أعداء الله: سيف أسد الله حمزة ، وعلى بن أبى طالب ، وأبى دجانة الذى كان يحارب بسيف الرسول ، وأخذ يمشى مشية يختال بها بين الصفوف ، حتى قال عنه الرسول الكريم وهو يراه يمشى هذه المشية المختالة ، ولا يأبه بشىء إلا الشهادة:

«هذه مشية يأباها الله ورسوله إلا فى هذا الموقف ، وأخذ ينشد:

إن الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيلِ

ألا أقوم الدهر فى الكبولِ[1] تضرب بسيف الله والرسولِ

---

(١) فى الكيول: فى الصفوف

هذه السيوف الثلاثة كانت تحصد الرؤوس حصدًا. وإذا بالمعجزة تكاد تتحقق ، وتكاد هند أن تجن وهى ترى انتصارات المسلمين ، فتصيح فى قسوة للمشركين محرضة الرجال على القتال :

وإن تقـــــــبلوا نعــــانقْ
ونفـــــرشِ النمـــــــارقْ
أو تـــدبـــــروا نفـــــارقْ
فـــــراق غـــير وامـــــقْ

ولكن أبا دجانة يخترق صفوف الأعداء ، ويصل إلى هؤلاء النسوة، فيفررن من أمامه ، وعدو الله وحشى يراقب أسد الله حمزة بن عبدالمطلب ، حتى تمكَّنَ من ضربه بحربته ، واستشهد أسد الله حمزة.

كاد المسلمون أن يحققوا النصر فى «أُحد» ، لولا أن خالف الرماة أوامر النبى ، وتركوا الجبل ، ونزلوا نحو الغنائم ، فكانت فرصة استغلها خالد بن الوليد ، واحتل هذه الأماكن الحصينة ، واختل التوازن ، ولولا التفاف المسلمين حول النبى لتحولت المعركة إلى هزيمة.

ولكن يبدو أن أبا سفيان خشى - وقد رأى التفاف الناس حول الرسول الكريم - أن تدور الدائرة على قريش، فآثر هذا النصر السريع ، ونادى فى المسلمين:

« أنعَمتْ فعالِ[1] ، وإن الحرب سجال ، اليوم بيوم ، أعل هبل، إن موعدكم فى العام المقبل».

وأمر النبى ابن الخطاب أن يرد عليه ، فقال:

« الله أعلى وأجل ».

ويلحق أسد الله حمزة بركب الشهداء، لبت روحه نداء خالقها، ولكن عين هند بنت كعب كانت تتحين هذه الفرصة ، فإذا بها تتقدم لتلوك بفمها كبد حمزة بن عبدالمطلب.

ويقول الرواة إنها رددت هذا القول:

شَفَيْتُ نفسى وقَضَيْتُ نَذْرِى
أزاح وَحْشِى غَليلَ صَدْرى

كم كانت ساحة المعركة حزينة لفراق أبطال الإسلام! وما أعظم أحزان النبى نفسه ، وهو يتفقد المعركة ، ويرى أصحابه الذين فارقوا الدنيا! وتقع عيناه على جثة عمه الحمزة ، صديق طفولته

(١) أى بالغنا فى فعالنا.

وشبابه ، فهو فى نفس سنه ويقول ﷺ:

لن أصاب بمثلك أبدًا !

ويقول أيضًا : لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بسبعين رجلاً منهم !

قال النبى ذلك والحزن يعتصره من الأعماق ، ولكنه نبى. إنه داعية الرحمة والإخاء والمساواة ، فإذا بآيات الله الكريم تنزل بردًا وسلامًا على قلب الرسول:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥ - ١٢٨].

يا لجلال الله! ويا لجلال النبوة! حتى فى هذا الموقف الصعب يصحح الله للناس موازين العدل، إنه لا ينبغى له وهو نبى أن يمثل حتى بالذين مثلوا بالمسلمين، والعقاب لا يتعدى المثل، والعفو أجمل.

وصلى النبى على الشهداء ، وغادر الحمزة دنيا الناس ، إلى أعظم جوار . . صورة لشجاعة القلب والعقل نادرة المثال.

والعجيب أن وحشيا قاتل حمزة قد أسلم فيما بعد ، وظل يؤرقه ما قام به من عمل دنىء ، وأراد أن يكفر عما اقترفت يداه، وخاصة بعد أن رأى النبى يشيح بوجهه عنه عند إسلامه ، وقال له : «غَيِّبْ عنى وجهك».

ومن هذه اللحظة كان الندم يهزه من الأعماق ، حتى حرص على ألا يراه الرسول. وعندما قامت فتنة مسيلمة الكذاب فى اليمامة خرج ، وحشى مع جيش المسلمين لقتال هذا الدعِىّ ، وصوَّبَ له نفس الرمح الذى قتل به الحمزة، فأرداه قتيلاً .

ويقول الرواة إنه قال:

« فإن كنتُ قد قتلتُ بحربتى هذه خير الناس، وهو حمزة ، فإنى لأرجو أن يغفر الله لى إذ قتلت بها شر الناس مسيلمة».

****

بطـل القـادسية

سعد بن أبى وقاص

سعد بن أبى وقاص

بطـل القـادسية

عاشت شبه الجزيرة العربية ردحًا طويلاً من الزمان فى ظلام الجهل والفقر لا يعبأ بها أحد ، فهى ليست مطمعًا لأحد ؛ لجدب الصحراء التى تتناثر على رمالها مجموعة من القبائل لا يربطها رابط ، بل هى دائمة الصراع والقتال فيما بينها.

ولم يكن فيها مكان يستهوى أحدًا سوى مكة؛ لأن فيها بيت الله الحرام.. هذا البيت الذى كان يقدسه العرب، وإن كان هو الآخر قد دنَّسَتْه الأصنام التى امتلأت بها ساحته.

إن هذا البيت الذى رفع قواعده خليل الرحمن إبراهيم - عليه السلام - وابنه إسماعيل ، كان أول بيت وضع للناس. غير أنه بتوالى السنين نسى الناس رسالة التوحيد التى نادى بها الخليل عليه السلام ، وبدءوا يضعون الأصنام فى بيت الله الحرام؛ لتقربهم إلى الله زلفى.

كانت مكة إذن هى محط الأنظار؛ لأن بها الكعبة ، ولأنها فى

موقع وسط بين اليمن والشام ، فكانت القوافل، القادمة من اليمن والذاهبة إلى الشام تمر بها، ومن هنا عرف أهل مكة رحلة الشتاء والصيف للتجارة فيما بين اليمن والشام وغير ذلك. كان كل شيء عاديا.

وعلى الحدود المتاخمة كانت هناك إمبراطورية الروم.. تفرض سيطرتها على الشام ، ثم تمتد السيطرة لتشمل مصر ، ثم الشمال الإفريقى حتى المحيط الأطلنطى. ولكن هذه الإمبراطورية لم تدخل شبه الجزيرة؛ فليس فيها من الثروات أو الفوائد ما يجعلها تفرض وصايتها عليها.

وهناك أيضًا الإمبراطورية الفارسية التى فرضت وصايتها علي العراق وعلى القبائل العربية فى الشام ، ولكنها أيضًا توقفت عن الدخول إلى شبه جزيرة العرب؛ لخوائها وقلة أهميتها.

كل شيء فى شبه الجزيرة كان يسير سيرًا نمطيا عاديا ، وسكانها ليس لهم خطر على أحد إلا على أنفسهم ، إلى أن بزغ نور الرسالة المحمدية ، فإذا بتغيرات جذرية هائلة بدأت تبرز فى محيط شبه الجزيرة.

وكان واضحًا رغم عنف مقاومة مكة للدين الجديد أن هذا الدين سيظهر أمره ، وأنه يرتفع بإنسانية معتنقيه إلى ذروة عالية

من الشموخ وعزة النفس.

وقد جذب هذا الدين إليه فى بداية الأمر أسماء لها مكانتها فى مجتمع مكة ، كأبى بكر الصديق ، وعبدالرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله.

وقد عرف سعد بن أبى وقاص طريقه إلى الإسلام عن طريق أبى بكر الصديق ، فقد كان إسلامه مبكرًا ، وكان لا يزال فى بداية الشباب عندما دخل الإيمان قلبه ، ولم يجد بعد أن ذاق حلاوة الإيمان أروع ولا أعظم من هذه العقيدة.

ويقول الرواة إنه كان يجب والدته حبا جما ، وكانت هى الأخرى تحبه حبا كبيرا ، وحزنت عندما علمت بإسلامه ، وحاولت أن تثنيه عن عزمه فلم تستطع .

فليس من المعقول أن يرجع من عرف لذة اليقين إلى جحيم الجاهلية. ومن المستحيل على من ذاق وعرف نور الإيمان أن يعود لعبادة حجارة صماء عمياء لا تملك نفعًا ولا ضرا ، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فإذا أمه تهتدى إلى حيلة خُيِّل إليها أنها سوف تعيد ابنها إلى عقيدة الآباء والأجداد.. قررت أن تصوم حتى الموت ، وخيَّرت ابنها بين أن يعود إلى دين الآباء والأجداد ، وأن تموت جوعًا،

فيصبح ابنها هدفًا لأن يعايره الآخرون بأنه قاتلُ أمه.

فماذا فعل سعد أمام هذا الاختيار الصعب؟

قال لها بكل الثقة والإيمان:

« تعلمين والله يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت دينى هذا لشىء، فكلى إن شئت أو لا تأكلى ».

ويصف الرواة سعدًا بأنه كان طويل القامة، أسمر البشرة، مهيباً جليلاً، له صوت مجلجل فى ساحات القتال.

وكان سعد عندما يتهيأ للصلاة يقوم للوضوء، فكان وجهه يمتقع، وترتعد فرائصه؛ لأنه سيقف أمام الله، وبكل خشوع وتقوى يؤدى صلاته الخاشعة أمام ملك الملوك.

وكان أول من رمى بسهم فى الإسلام، وهو بطل القادسية التى قهر فيها الفرس وحطم كبرياءهم. وبعدها دخل المدائن عاصمتهم. وبعد أن تحقق له هذا النصر الهائل، ودخل قصر كسرى صلى لله شاكرًا وردد قوله تعالى:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨)﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨].

لقد شاهد سعد بن أبى وقاص أيام الرسول الأولى مع بدايات الدعوة ، شاهد عن قرب شخصية النبى ﷺ الآسرة، وما فيها من جاذبية وقوة شخصية. كما استمع إلى بلاغة الرسول ﷺ وقدرته الفائقة على الدعوة لدين الله ، فبهرته هذه الشخصية فى الحرب والسلام ، وفى تبليغ الدعوة ، وفى معاملته للناس ، وفى سلوكه وورعه وزهده وتقشفه.

وشاهد النبى ﷺ فى معركة بدر ، شاهد ثباته العظيم، حيث انتصر المسلمون وهم قلة على مكة بكبريائها وصلفها.

وأبلى سعد فى هذه المعركة بلاءً حسنًا. كما كان له موقفه البطولى فى موقعة بدر ، حيث كان ماهرًا فى الرماية ، حتى إنهم قالوا عنه إنه أول من رمى بسهم فى الإسلام ، بل إن النبى ﷺ شجعه وأخذ يشد من أزره، ليقاتل أعداء الله بأن قال له كلمة أصبحت وسامًا على صدر سعد طوال حياته . فقد قال له الرسول الكريم:

« ارمِ يا سعد . . فداك أبى وأمى».

وقد دعا النبى ﷺ بأن يكون مستجاب الدعاء ، فقد كانت دعواته مستجابة.

ويروى الرواة هذه القصة التى توضح هذا المعنى:

رأى سعد رجلاً يسب عليا وطلحة والزبير، فنهاه فلم ينتهِ .

فقال له : إذن أدعو عليك.

فقال الرجل : أراك تهددنى كأنك نبى.

فانصرف سعد وتوضأ وصلى ركعتين، ثم رفع يديه وقال:

«اللهم إن كنت تعلم أن هذا الرجل قد سب أقوامًا سبقت لهم منك الحسنى ، وأنه قد أسخطك سبه إياهم؛ فاجعله عبرة وآية».

فلم يمض غير وقت قصير ، حتى خرجت من إحدى الدور ناقة نادَّة لا يردها شىء حتى دخلت فى زحام الناس، ثم اقتحمت الرجل فأخذته بين قوائمها ، وما زالت تتخبطه حتى مات.

وتمضى أيام رسول الله .

وجاءت أيام الصديق، حيث بدأ حكمه بالقضاء على المرتدين، ومانعى الزكاة ، وسيَّرَ جيش أسامة الذى كان قد أعده النبى لمجابهة الروم. وحقق خليفة رسول الله ﷺ الكثير عندما أعاد لكلمة التوحيد مكانتها ، ووحد الأمة على كلمة سواء ، وأعاد للإسلام قوته ومكانته وهيبته، وبسط نفوذه إلى خارج شبه الجزيرة.

ثم جاءت أيام الفاروق عمر بن الخطاب، لتأخذ الفتوحات الإسلامية دفعة قوية عندما انبرى لأقوى إمبراطورتين عرفهما التاريخ:

الإمبراطورية الرومانية ، والإمبراطورية الفارسية.

وكانت جيوش المسلمين قد حققت انتصارات على الفرس على يد المثنى بن حارثة، كما أنها أخذت تضرب الإمبراطورية الرومانية ضربات قاصمة على يد القادة الكبار ، والتى تألَّقَ فيها سيف الله خالد بن الوليد ، فى انتصاراته المذهلة على الروم.

وجاءت الأنباء إلى أمير المؤمنين بأن الفرس تعد للقضاء على المسلمين فى العراق ، وأنهم جهزوا لذلك جيشًا هائلاً ، مزودًا بأحدث الأسلحة وأفتكها ، كما زود هذا الجيش بالفيلة المدربة على القتال ، حتى إن عمر بن الخطاب أراد أن يذهب بنفسه ليقود جيش المسلمين ضد الفرس ، إلا أن الصحابة اعترضوا على ذلك فقرر أن يقود الجيش سعد بن أبى وقاص ، ليخوض معركة فاصلة مع الفرس ، بعد أن أثبت المثنى بن حارثة الشيبانى أنه من الممكن الانتصار على الفرس ، بل إن المثنى حقق بعض الانتصارات غير أنه استشهد بعد أن جاهد جهادًا عظيمًا فى الإسلام.

ويمضى سعد إلى العراق ، وترن فى أعماقه كلمات أمير

المؤمنين عمر بن الخطاب ، وهو يغادر المدينة فى طريقه لمجابهة هذه القوة العظمى المتمثلة فى الإمبراطورية الفارسية :

« يا سعد ، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول وصاحبه ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته ، والناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعاقبة ، ويدركون ما عند الله بالطاعة، فانتظر الأمر الذى رأيت رسول الله ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا عليه فالزمه ، فإنه الأمر».

بطل القادسية:

ومضى سعد إلى ميدان القتال نحو القادسية ، تلك المعركة التى غيرت مسار التاريخ الإنسانى كله ، إذ على أعقابها تغيرت خريطة الدنيا ، وداست سنابك خيول المسلمين إيوان كسرى ، وتحطمت الإمبراطورية التى طالما سامت الشعوب ذلا وهوانًا.

لقد كان جيش الفرس ضخمًا عددًا وعدة بقيادة رستم القائد الشهير الذى عسكر شرق الفرات ، وكان أمله ألا تحدث معركة فاصلة بينه وبين المسلمين ، وتمنى لو أخذت الأحداث مسارًا آخر لا يؤدى إلى معركة فاصلة بين المسلمين والفرس.

ويقول الرواة إن عمر بن الخطاب أرسل إلى سعد أن يبعث

بوفد إلى كسرى يعرض عليه الإسلام أو الجزية وإلا فهى الحرب ، وإن سعدًا أرسل وفدًا برئاسة النعمان بن مقرن ، وفى هذا اللقاء عيرهم «يزدجرد» بضعفهم وفقرهم واقترح عليهم أن يعين عليهم ملكًا يرفق بهم.

ورد عليه المغيرة بن زرارة الأسدى ، وأوضح له كيف أن الإسلام غيَّر من صورة العرب ، وحدثه عن النبى الخاتم ورسالته، وكيف انتصر ودخل العرب فى دين الله أفواجًا ، ثم ختم حديثه مع كسرى بقوله:

«فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت السيف، أو تُسلِم فتنجى ».

وقال له كسرى :

«أتستقبلنى بمثل هذا ؟! لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ولا شىء عندى لكم».

وأمر كسرى أن يُهال على الوفد التراب ، وهددهم بأنه سيدفن المسلمين فى القادسية.

فشلت المفاوضات إذن ، وفرضت المعركة على المسلمين ، ولكن سعدًا أراد أن يبعث الرسل إلى رستم الفارسى؛ ليعرف عن

قرب بنية الفرس؛ وفى نفس الوقت كان يريد إضعاف الروح المعنوية للفرس؛ لأن الرسل الذين كان يرسلهم سعد كانوا يظهرون عدم المبالاة بالفرس وقادتهم.

وكانت هذه المفاوضات عديمة الجدوى ، فالفرس يرون فى العرب قومًا ضعفاء ألجأهم الفقر إلى محاربتهم. بينما كان العرب يرون أن نور الإسلام لا بد أن ينتشر ، وأن النصر حليفهم. ورغم أن سعدًا كان مريضًا ، فإنه أمر جيشه بالذهاب للقتال ، وطلب منهم قراءة سورة الأنفال ، وفيها الآيات التى تحض على الجهاد ، وارتفعت الروح المعنوية عندهم إلى القمة.

وقامت المعركة التى تحقق فيها نصر الله ، وقُتل رستم ، وقد قدر بعض المؤرخين خسائر الفرس بأكثر من ثلاثين ألف قتيل فى هذه المعركة.

وكان عمر بن الخطاب فى المدينة ينتظر الأنباء.

ويقول الرواة إنه كان يخرج خارج المدينة ؛ لعله يجد أحد القادمين من العراق ليعرف أخبار المعركة ، وإنه رأى أحدهم قادمًا على راحلة، فأخذ عمر يسأل الرجل ، والرجل يجيب عن أسئلة أمير المؤمنين وهو لا يعرفه ، فقد كان يجيب عن أسئلته دون أن يتوقف، وعمر العظيم يسير بجانبه مصغٍ إلى كلامه ، إلى أن

دخل المدينة ، فوجد الناس تحيى أمير المؤمنين ، فعرفه ، فاعتذر له وأخبره بانتصار المسلمين الساحق على الفرس.

بداية انتصار الإسلام:

وكانت معركة القادسية بداية للانتصارات المذهلة للمسلمين على الفرس؛ فقد تحطمت قوتهم ، وتحطمت معنوياتهم، وأصبح الباب مفتوحًا أمام المسلمين لدخول المدائن عاصمة الفرس بعد ذلك ، وعندما دخل سعد إيوان كسرى ، ورأى ما فيه من كنوز وأموال وأثاث ، صلى لله شاكرًا على إنعامه وهو يردد قوله تعالى:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨].

وبعد تحقيق هذا النصر الهائل غنم المسلمون غنائم كثيرة عظيمة، وبعدها تولى سعد إمارة العراق ، ثم عاد إلى المدينة ، وآثر أن يعيش بعيدًا عن الإمارة ، وخاصة بعد أن اتهمه أهل الكوفة أنه لا يحسن الصلاة.

لقد حقق المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب انتصارات لم تكن تخطر على بال أحد، حيث انتصروا على الفرس فى

العراق، ودخلوا المدائن عاصمة كسرى نفسها ، كما نجح المسلمون فى إقصاء الرومان عن الشام وفلسطين ومصر ، وأصبحت الإمبراطورية الإسلامية من أقوى الإمبراطوريات التى عرفها التاريخ ، ولم تعد هناك قوة على وجه الأرض يمكنها الصمود أمام زحفها الجارف.

وتعرَّض أمير المؤمنين لمؤامرة خسيسة عندما طعنه أبو لؤلؤة المجوسى وهو يصلى ، وأوصى عمر أن يختار المسلمون واحدًا من ستة رشحهم للخلافة ، وكان من هؤلاء الستة سعد بن أبى وقاص ، بل إن عمر بن الخطاب أوصى إذا لم يتولَّ سعد الخلافة فليستعن به من يلى الحكم، وهذا يدل على مدى ثقة عمر بن الخطاب بسعد بن أبى وقاص.

وتؤول الخلافة إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ويبدأ عهده وقد استبشر الناس به ، فهو «ذو النورين» ، وهو الذى اشترى بئر رومة فى عهد رسول الله ووهبه للمسلمين ، وهو الذى أسهم بماله فى الجهاد فى سبيل الله ، وخاصة فى غزوة تبوك ، كما أنه ليس فيه شدة عمر بن الخطاب ، وزاد حب الناس له وهم يرون الزحف الإسلامى يواصل مده الساحق فى كل اتجاه، شرقًا وغربًا . كما أن الخليفة سمح بتكوين أسطول بحرى

لأول مرة فى تاريخ العرب ليواجهه الروم فى البحر أيضًا .

وكان هذا الأسطول الذى تكون بتشجيع من الخليفة لكل من معاوية بن أبى سفيان والى الشام ، وعبدالله بن أبى السرح والى مصر، النواة لهذا الأسطول الذى استطاع أن يقهر البيزنطيين فى معركة ذات الصوارى.

كما سمح الخليفة لمعاوية بالاستيلاء على قبرص ، فالصورة إذن كانت ناصعة ، انتصارات فى البحر والبر، وطموحات إسلامية لا حد لها.

إلا أنه سرعان ما بدأت الفتنة تطل برأسها ، وإذا بالبعض يتخذ من تعيين الخليفة لبعض أقاربه من الأمويين فى السلطة وإطلاق يدهم فى الحكم وسيلة للثورة عليه ، وبدأت أحداث الفتنة الكبرى التى انتهت بقتل الإمام مظلومًا.

لقد دافع سعد فى أول الأمر عن الخليفة أثناء الحصار ، ثم وجد نفسه ، أو هداه تفكيره أن يبتعد عن هذه الفتنة التى أطلت برأسها لتسدل ستارًا مظلمًا على الحياة فى المدينة ، ويمتد أثرها إلى مختلف بقاع العالم الإسلامى.

وكانت وجهة نظر سعد بن أبى وقاص فى بُعده عن الفتنة التى استعر أوارها أن السيف لا يفرق بين المؤمن وغير المؤمن ،

أو على حد قوله:

« أريد من ألف سيف سيفًا واحدًا ، إذا ضربت به المؤمن لم يقطع شيئًا ، وإذا ضربت به الكافر قطع ».

لقد رفض سعد أن يدخل فى دائرة الصراع عندما احتدمت نيران الفتنة ، وابتعد تمامًا عن الصراع الذى دار بين أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومعاوية ، بل إنه رد على معاوية عندما أخذ يعاتبه بأنه وقف موقفًا سلبيا من صراعه مع على بأن قال له:

« ما كنت لأقاتل عليا وقد قال رسول الله : أنت منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى».

وتمضى الأيام ، ويشعر المجاهد العظيم يدنو الأجل ، وأنه سوف يلاقى خالقه ، فإذا بالسعادة ترتسم على وجهه ، فهو أحد العشرة الذين بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة.

وإذا به يطلب ثوبًا قديمًا كان يحتفظ به؛ لأنه كان يجاهد به فى معركة بدر الكبرى ، وكانت وصيته أن يدفن فى الثوب البالى الذى شهد جهاده فى أعظم معارك الإسلام مع حبيبه رسول الله ﷺ ، تلك المعركة التى كانت نقطة تحول كبرى فى مسيرة الإسلام.

لقد خرجت الروح الطاهرة إلى بارئها ودفن فى أرض البقيع بعد أن ترك من الأمجاد ما سوف يظل التاريخ يردده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، إنه قاهر الفرس ، ورافع راية التوحيد على بقاع كانت تقدس النار.

ويكفيه فخرًا أن النبى كان يفاخر به .. وكان يقول له عندما يلقاه:

« هذا خالى ، فليرنى امرؤ خاله ».

****



سيف الله

خالد بن الوليد



خالد بن الوليد

سيف الله

لا يمكن الحديث عن أبطال الإسلام دون الحديث عن هذا البطل الفذ ، الذى لم يعرف التاريخ له مثيلاً فى جسارته وشجاعته ، وقدرته على التخطيط وخوض المعارك ، وتحقيق أعظم الإنتصارات ، والاستفادة من خطط العدو. إنه بطل حروب الردة ، وحروب الفرس والروم ، ورافع راية التوحيد فى كل معركة خاضها بإيمان المؤمن وجسارة الفارس الذى يحرص على الموت لتوهب له الحياة.

ذلك البطل العظيم هو خالد بن الوليد الذى قال عنه رسول الله ﷺ:

«نعم عبدالله وأخو العشيرة خالد بن الوليد ، سيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين».

ما أعظم هذه الأيام التى غيرت مسار الإنسانية كلها ، يوم نادى النبى العظيم بدعوة الإسلام ، واعتنقها هؤلاء الذين كانوا

نور هداية للإنسانية فى كل العصور!

ولعل خالد بن الوليد كان يتذكر رحلة عمره عندما دخل الإسلام وتذكر تلك الأيام التى عاشها فى مكة بعيدًا عن نور الهداية ، معاديًا للإسلام ، صادا عن دين الله ، غارقًا فى أوهام قومه فى عبادة أصنام لا فائدة تُرجَى من ورائها ، فهى لا تنفع ولا تضر ، بل إنه حارب الدعوة بشراسة ، وكان أحد الذين تصدوا للمسلمين بعنف فى غزوة أحد ، وكان فارس مكة الذى استطاع أن ينتهز فرصة مخالفة رماة المسلمين لأمر النبى، فنزلوا من أماكنهم الحصينة ، عندما تصوروا أن العدو قد حاقت به الهزيمة، فتركوا مواقعهم ، وانتهزها خالد فرصة فانقض على المسلمين، ومال ميزان القوى لصالح المشركين ، ولولا صمود النبى والتفاف الصحابة واستماتتهم فى الدفاع عنه لحاقت الهزيمة بالمسلمين.

ولكن خالد بن الوليد قد فكر طويلاً وهو يشاهد انتصارات الإسلام وذيوعه بين القبائل ، وقرر أن يسافر إلى المدينة ليعلن إسلامه ، ويبقى بجانب النبى ويكون من سيوف الإسلام ، وهو يصور إسلامه بقوله:

«وددت لو أجد من أصاحب ، فلقيت عثمان بن طلحة،

فذكرت له الذى أريد ، فأسرع الإجابة ، وخرجنا جميعًا فأدلجنا سحرًا ، فلما كنا بالسهل إذا عمرو بن العاص فقال : مرحبًا بالقوم.

قلنا : وبك.

قال : أين مسيركم ؟

فأخبرناه ، وأخبرنا أيضًا أنه يريد النبى ليسلم، فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة أول يوم صفر سنة ثمان ، فلما اطلعت على رسول الله ﷺ سلمت عليه بالنبوة، فرد على السلام بوجه طلق، فأسلمت وشهدت شهادة الحق.

فقال الرسول : لقد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير.

وبايعت رسول الله وقلت : استغفر لى ما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله.

فقال : إن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله..

قلت : يا رسول الله على ذلك..

فقال : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضعَ فيه من صد عن سبيلك».

وتقدم عمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة ، فأسلما وبايعا رسول الله ، ومضت أيام خالد لتكون كلها جهادًا فى سبيل الله.

وبدأ أول صراع بين العرب وأوربا ، عندما حشد الروم أكثر من مائتى ألف مقاتل فى «مؤتة» أمام ثلاثة ألف مقاتل مسلم.

وكان سبب هذه الحرب، أو بداية الصراع بين المسلمين والروم، أن النبى ﷺ أرسل رسائل فى السنة السابعة من الهجرة إلى ملوك العالم ورؤسائه يدعوهم إلى الإسلام؛ عملاً بقوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨)﴾ [سبأ: ٢٨].

فالإسلام دعوة عالمية ، وليس دعوة إقليمية. وحمل رسل رسول الله هذه الرسائل وانطلق كل منهم إلى من كلفه النبى بتوصيل الرسالة إليه ، وكانت هذه الرسائل موجهة إلى كسرى، وإلى ملوك الحبشة ، وإلى المقوقس فى مصر، وإلى أمير اليمامة، وإلى صاحب بصرى، وإلى الحارث بن شمر الغسانى أمير غسان، وكان يحمل الرسالة إليه شجاع بن دهب الأسدى ، الذى قوبل مقابلة سيئة للغاية من الأمير الغسانى ، بل تمادى فى غضبه وهو يلقى رسالة الرسول فى وجهه ويهدد بمحاربة النبى. أما الحارث

ابن عمير الأزدى الذى حمل رسالة النبى إلى صاحب بصرى فقد قتل عندما أوقفه عند قرية «مؤتة» أحد أمراء الغساسنة وقتله.

ولم تكن هذه الحادثة لتمر ببساطة ، فقد أرسل النبى جيشا لمقاتلتهم تعداده ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة ، وكان ذلك فى العام الثامن من الهجرة.

وعندما تقدم جيش المسلمين ، وكان خالد بن الوليد جنديا فيه، هاله ما رأى ، فلم يجدوا أمامهم جيش الغساسنة فقط ، ولكن وجدوا بجانبه جيش الإمبراطورية الرومانية الشرقية الذى جاء لمساعدة حلفائهم من الغساسنة ، وعند «معان» وقف المسلمون يفكرون - وهم يرون هذا العدد الضخم من جيوش العدو أمامهم - كيف يواجهون هذا الجيش الكثيف؟ وهل ينسحبون ويعودون إلى المدينة؟ أم يواجهون الموت فى سبيل شرف الاستشهاد ، ولكن بعد تفكير طويل قرر المسلمون الحرب، وقاتلوا بشجاعة منقطعة النظير، وسقط زيد بن حارثة، وتولى القيادة جعفر بن عبدالمطلب، واستشهد ، ثم تولى القيادة عبدالله ابن رواحة، واستشهد، واختار المسلمون خالد بن الوليد. وهنا فكر خالد فى الأمر ، ودرس أرض المعركة وأبعادها ، ورأى بذكائه الحاد أن محاربة الروم وهم بهذه القلة لا طائل من ورائها،

وأخذ يفكر كيف ينسحب بجنده بأقل ما يمكن من الخسائر.

دبر حيلة بارعة ، بأن أرسل بعض جنده خلف خطوط جيشه ليُثيروا الغبار عن بُعد ، فأيقن العدو أن مددًا من الجند قد جاء للمسلمين، وتحت جنح الظلام انسحب من أرض المعركة عائدًا بجيشه إلى المدينة.

وعندما عاب عليه المسلمون فى المدينة هذا الانسحاب ، وصاحوا فى الجيش العائد واتهموهم بالفرار، قال الرسول العظيم:

« بل هم الكرار إن شاء الله ».

فالرسول العظيم كان يرى ببصيرته أن هذه المعركة بين العرب والروم ليست هى الأولى والأخيرة ، ولكن المعركة مستمرة ، وأنهم سوف ينتصرون على أعداء الإسلام.

وتبلغ عظمة النبى وعبقريته القمة يوم رأى أن هزيمة «مؤتة» سوف تشجع الغساسنة والمناذرة أيضًا على التحرش بالمسلمين ، وأن الروم سوف يستغلون هذا الانسحاب في التهديد المستمر للمسلمين ، فقرر أن يقود بنفسه جيشًا إسلاميا ضخمًا قوامه ثلاثون ألف مقاتل ، ويتجه فى أصعب الظروف حيث كان الوقت صيفًا ، وهو نفس وقت موسم جنى محصول البلح.

خرج قاصداً تبوك، وفوجئ الروم بالجيش الإسلامى بقيادة النبى نفسه فى أصعب الظروف وأشقها ، فانسحب جيوش الروم، بينما أمر النبى خالد بن الوليد بإخضاع شمال الحجاز عندما ذهب إلى دومة الجندل ، واستطاع أن يأسر حاكمها «أكيدر بن عبدالله الكندى»، وقد أسلم أكيدر ، وعاد النبى إلى المدينة بعد أن قضى عشرين يومًا عند تبوك ، وكانت هذه الغزوة فى السنة التالية لغزوة مؤته ، أى فى السنة التاسعة للهجرة.

وقد أعادت هذه الحملة للمسلمين ثقتهم بأنفسهم ، وأن بإستطاعتهم مواجهة الدول الكبرى بلا خوف. وهذا ما حدث بالفعل عندما اكتسحت جيوش المسلمين الفرس والروم فى عهد خلفاء النبى ﷺ.

وكان خالد بن الوليد على رأس أحد أجنحة جيش المسلمين عندما دخل النبى مكة التى أخرجته ، وشاهد موكب النور وهو يدخل مكة ليحطم الأصنام وليعيد إلى بيت الله الحرام قدسيته. وينادى الرسول الكريم فى أهلها:

ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟!

قال أهل مكة : أخ كريم وابن أخ كريم.

قال النبى ﷺ : فاذهبوا فأنتم الطلقاء.

وتدخل مكة الإسلام ، وينتشر نوره فى أنحاء الجزيرة العربية كلها، وينتقل الرسول الكريم إلى أكرم جوار ، وتطل الفتنة برأسها تحاول أن يعود الظلام وأدران الجاهلية من جديد.

- فهناك من ارتد عن الإسلام.
- وهناك من منع الزكاة.
- وهناك من ادعى النبوة فى اليمامة.
- وهناك الخطر الرومانى والفارسى على الحدود.

وهنا تظهر قدرة الصديق على مجابهة هذه المواقف الصعبة ، فيقرر أن يحارب فى كل هذه الجبهات ، ويقود بنفسه الهجوم على المرتدين، فى نفس الوقت الذى يقرر فيه أن يوفد جيش أسامة بن زيد الذى كان قد أعده النبى ﷺ، لمجابهة الروم انتقامًا لشهداء مؤته.

وكان خالد بن الوليد أحد الفرسان العظام فى حروب الردة، فقد أعاد إلى الإسلام هيبته وجلاله عندما قتل مسيلمة الكذاب مدعى النبوة فى اليمامة ، بعد قتال فى غاية الضراوة.

وتمضى الأيام ، أيامًا مجيدة من أروع أيام الإسلام.

خليفة رسول الله فى المدينة أصبح حديث الدنيا كلها ، وقد

عادت للإسلام قوته ومهابته فى النفوس، بقضائه على الردة ، وتسييره الجيوش لتجابه أقوى الإمبراطوريات ، وهو لا يكتفى بمجابهة الروم انتقامًا لشهداء مؤتة ، ولكنه يجابه الفرس فى العراق.

إنه ميلاد تاريخ جديد للعالم والحياة ، يوم خرجت هذه الجيوش الظافرة من أرض الجزيرة العربية لتكتب للحياة ميلاد تاريخ جديد ، وأيام جديدة وحضارة جديدة ، ويهدى للبشرية كلها عقيدة التوحيد.

ها هو عمرو بن العاص ، وأبو عبيدة الجراح ، ويزيد بن أبى سفيان ، ومعاوية بن أبى سفيان ، يتخذون طريقهم إلى الشام ، حيث الإمبراطورية الرومانية بعتادها وقوتها الرهيبة، وما كاد المسلمون يحققون الانتصارات على الروم ، حتى كانت الروم قد أعدت جيشًا جرارًا للقضاء نهائيا على العرب ، وإعادتهم إلى الجزيرة القاحلة التى جاءوا منها ، ووصلت الأنباء خليفة الرسول فى المدينة ، فأمر أبو بكر خالد بن الوليد أن يذهب إلى الشام ، ويوليه القيادة العامة لمجابهة أعداء الإسلام ، ومن يحاولون القضاء عليه نهائيا. وتظهر عبقرية سيف الله ، ويقطع بسرعة صحراء الشام ، ليصل إلى أرض المعركة قبل اندلاعها بقليل ،

ويستبشر المسلمون خيرًا وهم يرون أن قيادتهم أصبحت فى يد خالد.

هذا السيف الذى لم يعرف الهزيمة يومًا ، والذى يفكر ويدير المعركة، بعقلية فذة عجيبة ، ويخطب خالد فى الناس أن يثبتوا فى معركة الشرف والكرامة ، فالمسلم ليس أمامه إلا إحدى الحسنيين ، وينظم خالد جيشه ، وفى نفس الوقت يعطى نساء المسلمين وظيفة مهمة كان لها أثرها فى هذه المعركة الفاصلة فى التاريخ (معركة اليرموك).

وعندما طلب من النساء أن يقتلن أى مسلم يفر من المعركة ، فهو يعرف تمامًا أن الهرب من المعركة يؤدى إلى سريان روح الهزيمة فى المقاتلين ، وكان من المقاتلين فى هذه المعركة رجل جاوز الثالثة والسبعين من العمر وزوجته ، وهذا الرجل الذى تقدمت به السن وزوجته العجوز هو أبو سفيان بن حرب وزوجته هند بنت عتبة.

أبو سفيان الذى طالما كاد للإسلام ونبى الإسلام ، وهند التى بلغ بها حقدها على عم الرسول حمزة بن عبدالمطلب أن أكلت كبده بعد أن دبرت مؤامرة اغتياله على يد «وحشى».

وها هما الآن يذهبان إلى تلك المعركة الفاصلة ، ومعهما

ولداهما يزيد ومعاوية. كمْ غيَّر الإسلام من قلوب كانت أشد قسوة من الحجارة!

وتبدأ المعركة حامية الوطيس.. الرياح عاصفة ، والغبار يملأ عيون الأعداء؛ لأنهم كانوا فى اتجاه الريح ، ويصول خالد ويجول، وجيش الإسلام قد عزم على الشهادة ، لا يريد غيرها بديلاً . إنهم لا يريدون إلا النصر أو الموت.

وتميل الكفة لصالح المسلمين ، ويتساقط الرومان بالمئات ، ثم الألوف ، ويشعر هرقل أن شمس الإمبراطورية الرومانية قد أخذت طريقها نحو الغروب لا محالة.

إنه فى لحظة يتذكر أمجاد الرومان وأيامهم فى سوريا ، وقال كلمته الشهيرة التى يودع فيها مجدًا زال ، وتاريخًا تهاوى:

« سلامًا عليك يا سوريا ، سلامًا لا لقاء بعده».

وركب صهوة جواده ليعبر جبال طوروس متجهًا إلى الغرب.

ويقول الرواة إنه فى بداية المعركة ، هجم الروم بعنف؛ مما حدا بعكرمة بن أبى جهل أن صاح فى المسلمين، مطالبًا أن ينضم إليه مَنْ يريد الموت ، فتقدم الحارث ابن هشام وضرار بن الأزور فى أربعمائة من فرسان المسلمين، وشنوا هجومًا عنيفًا على الروم ،

بينما تقدم خالد بن الوليد نحو فرسان العدو بجسارته المعهودة ، فتشتت شملهم وأوقع فى قلوبهم الرعب والفزع.

وبدا واضحًا للعيان أن المعركة قد أصبحت لصالح المسلمين رغم الضحايا. فقد استشهد قرابة ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين، ومن بينهم عكرمة ، وضرار بن الأزور وغيرهما.

وبانتصارات اليرموك ذهبت قوة الرومان ، وأصبح الطريق ميسورًا أمام الجيوش العربية للزحف لتحقيق النصر ، فتوالى الزحف نحو المدن الرئيسية التى سقطت فى قبضة المسلمين ، وكان قد تولى القيادة أبو عبيدة بن الجراح بدلاً من خالد ، فقد ولاه عمر بن الخطاب القيادة العامة ، بعد أن تولى الخلافة التى آلت إليه عقب انتقال الصديق إلى جوار ربه.

استطاع أبو عبيدة الاستيلاء على «فحل» و «بيسان» و «طبرية»، بينما سقطت معظم مدن الأردن تحت ضربات شرحبيل ، وتساقطت المدن الشامية مستسلمة إما صلحًا وإما عنوة ، بينما واصل عمرو بن العاص انتصاراته الكاسحة فى باقى مدن فلسطين، حتى وصل إيلياء (القدس) وحاصرها أربعة أشهر إلى أن استسلمت بشرط أن يتسلمها عمر بن الخطاب نفسه.

وقد قبل عمر بن الخطاب ذلك ، وعقد الصلح مع أهلها ،

وكان ذلك فى عام ١٦ هجرية .

وهكذا كانت جسارة خالد وقدرته الفائقة على القيادة والقتال واستثمار الثغرات التى يقع فيها الأعداء وتعديل خططه أثناء القتال من العوامل الحاسمة فى الفتوحات الإسلامية الكبرى ، فكان له الفضل فى تدمير قوة الفرس فى العراق والرومان والشام.

ثم واصل الزحف الإسلامى اندفاعه بعد ذلك إلى أن وصل ما بين الصين حتى المحيط الأطلنطى ، وجنوب أوربا أيضًا.

وإذا كان عمر بن الخطاب بما عرف عنه من عدالة بلغت أعلى مناسيب العدل كان يرى فى سيف خالد بن الوليد رهقاً ، فقد عزله عن القيادة أو خشى من فتنة المسلمين به وبانتصاراته ، مع أن النصر من عند الله، ربما لهذه الأسباب عزله من القيادة وهو فى أوج انتصاراته، وفى ذروة مجده.

إلا أن أمير المؤمنين ما كان ليجهل دور خالد ، وما قدمه من جلائل الأعمال والبطولات. لقد لقى خالد بن الوليد ربه أثناء خلافته، وعندما سمع النساء يولولن عليه قال:

«عجزت النساء أن يلدن مثل خالد».

يومها بكى أمير المؤمنين طويلاً ، وهو يرى فارس الإسلام

وسيف الإسلام واراه التراب . . هذا الفارس الشجاع والقائد الملهم الذى أعاد للإسلام هيبته فى النفس فى حروب الردة، وأذاق الفرس عار الهزيمة .

وحطم أسطورة التفوق الرومانى الذى لا يقهر.

وهو الذى ذهب إلى «العزى» التى كانت تعبد من دون الله فهدمها وحرقها وهو يردد:

يا عزى، كفرانك لا سبحانك.

إنى رأيت الله قد أهانك.

وإن عمر يطوف بذهنه تاريخ هذا البطل العجيب ويبكى؛ لأنه كان يعرف قدره ، وفى الوقت نفسه كان موقعه كأمير للمؤمنين يجعله يعيد حساباته عندما تولى الخلافة ، فقد كان يرى أن انتصارات المسلمين إنما هى بفضل الله ، ولا يرجع فيها الفضل لقائد أو فارس، وأراد أن يثبت للناس ذلك؛ حتى لا يفتن الناس بفارسهم الذى لم يعرف الهزيمة.

ويقول الرواة أيضًا إن عمر كان قد نوى أن يولى خالد إحدى الإمارات ، ولكن الموت عاجله.

والعجيب أن بطل المعارك وقائد الحروب الجسور خالد بن

الوليد التى كانت نفسه تتوق إلى الشهادة فى أحد ميادين القتال ، مات على فراشه وهو القائل:

« ما ليلة يهدى إلىَّ فيها عرس ، أو أُبشَّرُ فيها بوليد ، بأحب إلىَّ من ليلة شديدة الجليد ، فى سرية من المهاجرين أصبح بهم المشركين».

ومن هنا قال وهو يشعر أن روحه سوف تنطلق إلى بارئها:

« لقد شهدت مائة معركة أو زهاءها. وما فى جسدى موضع إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية سهم ، ثم هأنذا أموت على الفراش حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء».

ومات البطل الشهيد ، وكل ما يملكه من حطام الدنيا فرسه وسلاحه. لقد حمل المسلمون جثمان بطل الإسلام ، وقائد انتصاراته إلى مثواه الأخير وأمه تودعه قائلة:

أنت خير من ألف ألف من القوم   إذا ما كبت وجوه الرجال

أشجاع ، فأنت أشجع من ليث   غضنفر يذود عن أشبال

أجواد ، فأنت أجود من سيل   غامر يسيل بين الجبال

وما كانت هذه الكلمات الحزينة الباكية ، والمعبرة عن كل ما

فى البطل من صفات تتداعى إلى سمع عمر بن الخطاب حتى قال:

«صدقت والله إنه كان لكذلك».

ورقد الجثمان الطاهر فى مثواه الأخير ، بعد رحلة جهاد عظيمة تاركًا التاريخ يقص عبر أيامه سيرة بطل غيَّر مسار الدنيا ، ورسم صورة جديدة ، وخريطة جديدة لعالم جديد وحياة جديدة وحضارة جديدة.

داهية الحرب والسياسة

عمرو بن العاص

عمــرو بـن العــاص

داهية الحرب والسياسة

ما أصعب الحديث عن عمرو بن العاص!

وما أصعب تحليل هذه الشخصية التى لعبت هذا الدور الخطير فى تاريخ الإسلام!

وما أكثر الهوة الشاسعة بين التحليلات المختلفة حول هذه الشخصية من قبل أن نعرض لها بالدراسة والتحليل فى مختلف عصور التاريخ!

فهو بلغة الحساب قدَّمَ الكثير فى خدمة الإسلام وقضايا الإسلام، وعلى يديه تم فتح فلسطين ، وقام بدور إيجابى فى حروب الردة.

وهو أيضًا طالما كاد للإسلام ، ووقف ضد الدعوة ، وكان إسلامه متأخرًا ، كما أن له أدوارًا فى سياسة خطيرة عندما احتدم الصراع بين الإمام على - رضى الله عنه - ومعاوية بن أبى سفيان.

ومن هنا فإن حساب المكسب والخسارة بالنسبة إلى الإسلام من

هذه الشخصية يصبح فى غاية التعقيد والصعوبة، ولا يبقى أمام الدارس المنصف، إلا أن يرى موقفه من خلال الأحداث التاريخية المختلفة ، ويرى من وجهة نظر هذا الداهية الكبير نفسه فى نفسه.

نشأ عمرو بن العاص وهو فى حيرة من أمره ، فإذا كان أبوه العاص بن وائل من أشهر رجال مكة لما له من ثراء وجاه ، فإن أمه كانت أمـــة ، وكان اسمها سلمى بنت حرملة ، هذه النشأة جعلت عمرًا يتشبث ويفتخر بأبيه؛ لما له من جاه وسلطان ، ويخجل أن أمه كانت مجرد رقيق. وقد سبب له هذا الوضع عقدة ترسبت فى أعماقه، أن يكون سيدًا كوالده ، وألا يكون تابعًا لأحد كأمه ، وأن يرتفع بما يؤهله للزعامة والسيادة ، فقد أجاد القراءة والكتابة وأحب الشعر وتعلم فنون القتال ، كما تعلم أيضًا السباحة ، وقرر أن يجوب مختلف البلدان للتجارة؛ ليكون من أصحاب الثراء.

وجاءت الدعوة الإسلامية ، ووجد المجتمع المكى نفسه فجأة أمام دعوة جديدة ، تنادى بسيادة الإنسان ، وأنه لافرق بين إنسان وآخر إلا بالتقوى ، ولا تتحقق إنسانية الإنسان إلا بالإيمان ، فلا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان ، وكان لصاحب الدعوة من القوة والجلال والمهابة ما جعل القلوب تتألف حوله ، فما عرفوا

عن الرسول الكريـــم ﷺ إلا الأخلاق السامية الرفيعة ، ووجد ابن العاص هذه الدعوة تحول دون تحقيق طموحاته، فوقف كما وقف والده العاص بن وائل ضدها ، وأخذ يعلن عليها الحرب ، وكان قد جاوز الثلاثين من عمره.

ولكن هاله انتشار الدعوة ، وأن تعذيب مكة للضعفاء المسلمين لم يُثْنِ من عزمهم ، ونور الإسلام ينطلق إلى غايته، فاشتد عليه الأمر، وزاد من عذابه أنه علم بأن النبى ﷺ سمح للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة هربًا من تنكيل مكة لهم ، فقرر أن يكون سفيرًا لمكة عند نجاشى الحبشة ، وقرر أن يسافر إلى ملك الحبشة ليثيره على المسلمين. ولكن دهاءه ومكره وحسن حديثه وكل الوسائل التى كان يمتلكها ابن العاص قد فشلت تمامًا، فالنجاشى قد استمع إلى من يمثل المسلمين فى الحديث إليه حول الإسلام ونبى الإسلام ، وكان هذا الرجل هو جعفر بن أبى طالب . . كان فصيحًا بليغًا . . دافع عن الإسلام بقوله:

« أيها الملك ، كنا قومًا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله

لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار . . . » إلى آخر هذا الحديث الشهير.

فأعجب ذلك النجاشى ، إلا أن عمرًا أراد ألا يخضع للهزيمة، وأراد أن يشى بين المسلمين والنجاشى ، فقال له:

« إنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد».

وسأل النجاشى جعفر عن رأى الإسلام فى السيد المسيح ، فما كان من جعفر إلا أن قرأ له بعض آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن السيد المسيح باعتباره روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم.

وأعجب النجاشى بردود جعفر بن أبى طالب ، وقرر ألا يسلم المسلمين إلى مكة ، ورد إلى ابن العاص الهدايا التى كان يحملها إليه.

وعاد ابن العاص إلى مكة بخُفَّى حُنَين ، وشاهد زحف الإسلام الساحق ، وخاصة بعد الهجرة ، وانتصارات المسلمين فى بدر ، وصمودهم فى أحد ، وفشل الأحزاب عندما حاصروا المسلمين فى المدينة ، وعلم تماماً أن هذا الدين لن يقف أمامه حائل ، وفكر فى أمر هذا الدين وانتصاراته ، وما يخلعه على

معتنقيه من قوة العزيمة والحرص على الشهادة ، وأيقن أن مستقبله كله مُرْتَهِن بالإسلام ، وقرر أن يدخل فى دين الله.

لقد أسلم عمرو بن العاص قبيل فتح مكة بقليل. وعندما ذهب ليعلن إسلامه ، التقى وهو فى طريقه إلى المدينة بخالد بن الوليد الذى ذهب هو الآخر ليعلن إسلامه، وتقدم خالد وأعلن إسلامه. وعندما تقدم عمرو بعده قال للرسول ﷺ:

« يا رسول الله، إنى أبايعك على أن يغفر الله لى ما تقدَّمَ من ذنبى».

فقال له الرسول:

« يا عمرو، بايع ، فإن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله».

وفى رواية أخرى أن عمرو بن العاص قال للنبى:

« أبايعك يا رسول الله على أن يُغفَرَ لى ما تقدَّمَ من ذنبى».

رد عليه الرسول:

« إن الإسلام والهجرة يَجُبَّان ما كان قبلهما».

ويقول عمرو بن العاص معلقًا على إسلامه وما كان يعتريه من خجل كلما رأى رسول الله؛ لتأخره فى الإسلام:

« واللهِ ما ملأتُ عينى منه وراجعْتُه بما أريد حتى لحق ربه؛ حياءً منه».

ولقد أتيحت الفرصة لعمرو بن العاص ليثبت ولاءه للإسلام وفى الإسلام ، عندما تَناهَى إلى سمع النبى أن بعض القبائل من قضاعة ينوون القيام بالهجوم على المدينة ، فقرر أن يفاجئهم فى ديارهم ، وانتدب للقيادة عمرو بن العاص على رأس ثلاثمائة مسلم. وقد شعر عمرو بالارتياح لأن النبى اختاره لهذه المهمة رغم حداثة دخوله الإسلام ، وشعر فيما بينه وبين نفسه بأهميته وأراد أن يحقق انتصارًا ، حتى تكون ثقة الرسول فى محلها من جهة ، ومن جهة أخرى فإن انتصاره يكون بداية لصعوده سلم المجد فى ظل الدين الذى اعتنقه ، وهو الذى كان كثيرًا ما يردد فى فخر واعتزاز باختيار النبى له ولخالد بن الوليد فى الحروب بمجرد إسلامهما.

لقد توجَّهَ ابن العاص فى طريقه إلى معركة ذات السلاسل ، ودرس الموقف العسكرى ، ووجد أن قواته من الصعب أن تواجه الأعداء بعددهم القليل ، وأرسل يطلب المدد من الرسول الكريم، وأرسل له الرسول مدداً فيه عدد من أعلام الصحابة من أمثال: أبى عبيدة بن الجراح ، وأبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب. ورحَّبَ بهم عمرو ، ولكنه أصر أن يكون هو القائد؛ لأن أبا

عبيدة ومن معه جاءوا كمدد . أما القيادة فهى له.

وحرصًا من أبى عبيدة بن الجراح ألا يدبَّ الخلاف بسبب القيادة، ويتسبب عن هذا هزيمة أو ما لا يُحمَد عُقْباه ، ترك أمر القيادة لعمرو. وهذا يدل على حرص عمرو على الرئاسة والسلطة وأن طموحاته العسكرية والسياسية بلا حدود.

وقاد عمرو المسلمين فى هذه المعركة ، وكانت المعركة فى ليالى الشتاء القارس ، ورفض عمرو أن يوقد أحد من جيشه النار للتدفئة؛ حتى لا يعرف العدو عدد جيشه فيستهين به. وحقق النصر فى هذه المعركة التى كانت نقطة انطلاقًا فى انتصاراته العسكرية بعد ذلك. وعاد من هذه المعركة سعيدًا؛ لأنه أرضى رسول الله ﷺ، وأثبت مقدرته العسكرية فى جيش من جنوده الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح.

وصدق فيه حدس عمر بن الخطاب عندما قال عنه:

«ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميرًا».

وتمضى الأيام ، وينتقل رسول الله إلى أكرم جوار ، ويرتد بعض العرب عن الإسلام ، وإذا بالصديق يتصدى لهم ، ويحقق انتصاراً عليهم، ويُعيد للعرب وحدتهم ، وكان أحد أبطال هذه الحروب عمرو بن العاص عندما قضى على الردة فى قضاعة،

نفس القبائل التى هزمها من قبل فى معركة ذات السلاسل. وهكذا استطاع عمرو بن العاص أن يضع قدميه على سلم المجد، ووثق به خليفة رسول الله.

كما وثق به الرسول ﷺ ، وأصبح الطريق أمامه ممهدًا ليحقق ما تصبو إليه نفسه من طموحات ، وفى نفس الوقت يحقق للإسلام الأهداف التى يسعى إليها فى نشر نوره وحضارته بين ربوع البشر.

ومع الأيام يظهر الإسلام ، فلم يعد خافيًا على أحد فى مختلف أرجاء الدنيا ، فقد سبق أن أرسل الرسول الكريم رسله إلى ملوك العالم وحكامه يدعوهم إلى الإسلام؛ لأن الإسلام دعوة عالمية ، جاء للناس كافة على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم ، منهم من رد ردا حسنًا، ومنهم من كان صفيقًا فى رده. وقد آن الأوان للمجابهة. لقد اتحد العرب ، أصبحوا أمة واحدة ، يحكمهم حاكم واحد لهم هدف واحد ، وآمال واحدة، وطموحات واحدة. وقد قرر نشر دين الله فى كل الدنيا ، كما أوحى بذلك نبيهم ، وكان لابد من المواجهة مع الدولتين العظيمين : الفرس والرومان.

على جبهة الفرس تحققت الانتصارات المذهلة، ودخل المسلمون

المدائن عاصمة كسرى بقيادة سعد بن أبى وقاص.

وفى الجبهة الرومانية حقق خالد بن الوليد ما يشبه المعجزات العسكرية عندما اخترق بجيوشه بادية الشمال ، ولحق بالمسلمين فى الشام قبيل معركة اليرموك ، واستطاع أن يشتت شمل الروم.

وبعدها تم فتح فلسطين على يد عمرو بن العاص ، غير أن عمراً يرمى إلى فتح مصر؛ لتأمين ما حققه المسلمون من انتصارات فى العراق والشام ، وحتى لا ينقض عليهم من جديد الرومان الذين تتمركز قواتهم فى مصر ، وفى الوقت نفسه كان عمرو بن العاص يعلم علم اليقين مدى كراهية المصريين لحكم الرومان ، وأنه لو دخل مصر فسيساعده المصريون؛ ومن ثم سوف يحقق النصر.

لقد كانت مصر هى أغنى ممتلكات الرومان ، وقرر عمرو أن يحقق أمنية عمره بالاستيلاء عليها وتحريرها من طغيان الروم. وسنحت له الفرصة عندما التقى بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب عند «الجابية»، عندما جاء إلى فلسطين لاستلام بيت المقدس ، وأخبره بأهمية فتح مصر ، واقتنع أمير المؤمنين، ووافق على الفكرة من حيث المبدأ، وأخبره أن عليه أن يواصل زحفه نحو مصر ، إلا إذا جاءته رسالة بعدم دخول مصر إذا لم تكن جيوشه

قد وطِئَتْها بالفعل.

ويقال إن خطاب أمير المؤمنين قد وصل عمرًا ولم يدخل مصر بعد، وأنه تَحايَلَ على رسول أمير المؤمنين؛ حتى لا يفضَّ الخطاب إلا بعد أن يدخل الأراضى المصرية. وعندما دخلها أخذ يقرأ خطاب أمير المؤمنين الذى كان يأمره بالعودة لو لم يكن قد دخل أرض مصر ، ومن ثم واصل زحفه ، وحقق انتصاره إلى أن تم له الاستيلاء على مصر.

وما أكثر الروايات والأساطير حول دهاء عمرو وطموحاته!

فقد امتلأت كتب التاريخ بكل هذه الأساطير التى لا تمتُّ إلى الواقع التاريخى بصلة ، ولكن إذا دلت على شىء فإنما تدل على مدى ما ارتبط بشخصية عمرو من أساطير. وهذا يدل أيضًا على الوزن المهم الذى كان لشخصية عمرو ، وما كان يتمتع به من سياسة ودهاء.

ومما يرويه الرواة عن دهائه أنه عندما جاء لفتح مصر ، وأثناء الحصار لحصن بابليون ، كان هناك تفاوض بين عمرو وقائد المعسكر الرومانى ، وأن هذا القائد الرومانى قد أعد خطة لقتل عمرو أثناء خروجه من الحصن بعد التفاوض بأن يلقى عليه حجرًا فيرديه قتيلاً. وقد فطن عمرو وهو فى طريقه إلى الخروج من

الحصن بأن هناك مؤامرة.

فعاد ثابت الخطى إلى القائد الرومانى يخبره بأن عددًا من قادة المسلمين يريدون الالتقاء به فى الحصن؛ حتى يتم التفاوض فى حضرتهم. وكان يقصد أن يرمى بطعم إلى القائد الرومانى ، الذى ابتلع الطعم بالفعل ، على أمل أن ينتظر إلى الغد؛ حتى يتم قتل الجميع. ونجا عمرو من المؤمراة، وتحقق له فيما بعد فتح الحصن.

وإذا كان عمرو بن العاص قد وطَّد نفسه فى مجال البطولات العسكرية ، وحقق انتصارًا واضحًا عندما ضم مصر إلى حظيرة الإسلام ، وقرر أن تكون مصر نقطة انطلاق الفتوحات الإسلامية عبر الشمال الإفريقى فيما بعد ، فإن هذه الانتصارات ارتبطت معها طموحاته السياسية، فلم يطق البعد عن السلطة وقد أحزنه أن يعزله عثمان بن عفان عن ولاية مصر.

وعندما احتدم الخلاف بين على ومعاوية ، انضم إلى جيش معاوية؛ حتى يوليه حكم مصر من جديد ، وحتى يظل على مسرح السياسة يمارس فيها طموحاته ، فما كان لإنسان مثل عمرو بعد أن حقق ما كان يصبو إليه من انتصارات أو يصل إلى السلطة أن يتنازل عن كل ذلك ببساطة وينطوى فى زوايا النسيان.

لقد كان مثلاً على طرفى نقيض مع ابنه عبدالله.. هذا الابن الذى أسلم قبل أبيه ، وعرف لذة الطاعة ، وجمال الإيمان ، ووجد أن الحياة بلا معنى؛ لأنها مجرد جسر إلى الآخرة. لهذا عاش عمره مجاهدًا فى ميدان النفس ، فكان يعيش حياته زاهدًا، متعبدًا كثير الصلاة والصيام ، بنفس الدافع الذى يدفعه إلى ميدان الجهاد فى ساحات القتال ، حتى إن النبى ﷺ أوصاه أن يقتصد قليلاً فى عبادته وأن يطيع والده.

وعندما اندلعت نيران الفتنة ، وبدأت المعارك العسكرية من أتباع على وأتباع معاوية ، وتوقفت الفتوحات الإسلامية نتيجة الصراع بين المسلمين؛ حاول عمرو أن يجعل ابنه يخرج للقتال فى صف معاوية ، وكان ابنه قد رفض القتال فى أول الأمر ، غير أن عمرًا ذكره بوصية الرسول له بطاعة أبيه ، فخرج ابنه على كره منه ، ولكنه فوجئ أثناء القتال بمقتل عمار بن ياسر ، الذى سمع بنفسه النبى ﷺ يقول له:

«ستقتلك الفئة الباغية».

وها هو يُقَتل ، والذى قتله جيش معاوية. إذن جيش معاوية هو الفئة الباغية. وعلى الفور قرر عبدالله الانسحاب من هذه المعركة ، وهاله أن يسفك المسلم دم أخيه المسلم . بل الأدهى من

ذلك أنه يقاتل الآن بجانب الفئة الباغية ، فقد اتضح له ذلك بما لا يدع مجالاً للشك عندما قتل عمار بن ياسر.

ولكن سرعان ما احتوى معاوية وعمرو بدهائهما الشديد الموقف، وخوفًا من أن تُحدِث آراء عبدالله بن عمرو بن العاص العصيان فى جيش معاوية ، سرعان ما احتويا الموقف عندما أعلنا أن الذى قتل عمار بن ياسر هو الذى جاء به إلى هذه المعركة ، يعنى الإمام عليا رضى الله عنه.

ولعل أخطر أدوار عمرو بن العاص السياسية ، هو ذلك الدور الذى لعبه عندما احتدم الخلاف بين على ومعاوية.

كان جيش معاوية أطوع إليه من خاتم أصبعه كما يقولون ، وكان جيش على كثير النقاش معه . . لا يتركون الإمام يقرر أمرًا إلا بعد أن يناقشوه ويجادلوه ،حتى اشتد الأمر عليه.

وفى معركة «صفين» عندما أوشكت جيوش الإمام على أن تحقق الانتصار الحاسم، نظر معاوية إلى عمرو يسأله الرأى والمشورة ، وأشار عمرو أن يرفع جنود الشام المصاحف على أسنة الرماح طلبًا لتحكيم كتاب الله ، وهنا تتهيأ الفرصة ليعاود معاوية تنظيم جيشه من جديد ، أى أنها هدنة مسلحة. ورفع جنود الشام المصاحف على أسنة الرماح، وطلب على من جيشه مواصلة

القتال ، ولكنهم لم يستجيبوا له، وأخذوا يجادلونه كالعادة ، وذهبت نصائح الإمام أدراج الرياح ، ولم يجد بُدا من الاستجابة ووقف القتال ، واختار معاوية للتحكيم -بالطبع- ، عمرو بن العاص الذى كان يناهز الثمانين من عمره.

واختير أبو موسى الأشعرى ليمثل الإمام، ودار اجتماع بين عمرو وأبى موسى الأشعرى، واستطاع عمرو أن يخدع أبا موسى ويقنعه بضرورة خلع كل من على ومعاوية، وأن يختار المسلمون خليفة جديدًا. واقتنع أبو موسى الأشعرى.

وفى «دومة الجندل» كان على عمرو وموسى أن يعلنا ما اتفقا عليه، وطلب عمرو أن يتقدم أبو موسى الأشعرى ليعلن رأيه أولاً نظرًا لسابقته فى الإسلام وكِبَرِ سنه.

ويقول بعض الرواة إن ابن العباس نصح أبا موسى الأشعرى أن يتكلم بعد عمرو؛ حتى لا يكون فى الأمر شىء. ولكن أبا موسى الأشعرى رفض ذلك ، وقام وأعلن خلعه لعلى.

وبعدها قام عمرو، وأعلن تأييده لخلع على، وتثبيته معاوية خليفة للمسلمين ، وفُجع أبو موسى الأشعرى ، وقام يلعن عمرًا، ويعلن أنه خدعه، وأن ما أعلنه عمرو ليس هو الذى اتفقا عليه.

ورد عليه عمرو ردا عنيفًا .

وهكذا كانت حيلة عمرو دافعًا من أقوى الدوافع لتثبيت دولة بنى أمية.

وتمضى الأيام ، ويحس عمرو أن أيامه فى الدنيا صارت قليلة، وأنه يوشك على الرحيل ، وأنه سوف يلتقى بربه ، ولا ينفعه إلا ما قدمت يداه فى خدمة الدين ، وأنه سوف يلتقى مع من لا يستطيع مخلوق خداعه ، ولا يبقى للإنسان فى لحظات الوقوف أمام الخالق العظيم إلا ما قدمت يداه.

ويمر شريط الذكريات فى مخيلة عمرو: يوم وقف ضد الدعوة، ويوم أسلم وأخبره الرسول العظيم بأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، ويوم جاهد المرتدين ، ومن قبل جاهد أعداء الإسلام فى زمن الرسول ﷺ، ويوم قاد جيوش الإسلام فى فلسطين ومصر.

يتذكر كل ذلك ، ثم يتذكر مواقفه السياسية فتدمع عيناه .

أين حساب الكسب والخسارة؟

أيهما أرجح عند الله؟

ما موقفه أمام خالق كل شىء؟ ما أشد الحساب!

وتدمع عيناه ، ويسأله ابنه عبدالله:

- أجزعٌ من الموت؟

- لا . ولكن ما بعد الموت.

ويقول بعض الرواة إنه قال:

- اللهم إنك أمرتنى فلم آتمر ، وزجرتنى فلم أنزجر.

وظل يردد «لا إله إلا الله» ، إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة.

وعلى ثرى مصر الطاهر ، وفى مكان غير معروف فى جبل المقطم، دُفِن عمرو بن العاص.

انتهى الجسد ، وبقِيَت الأعمال والذكريات.

وظلت شخصيته من الصعوبة بمكان فك طلاسمها.

فما أكثر الاختلافات حوله!

ولكن ربما يشفع له ما حققه من انتصارات عسكرية ضخمة فى أيام خلفائه.

وآخر كلماته التى لقى الله عليها:

« لا إله إلا الله».

❊ ❊ ❊

قاهر الفرس
ورافع راية التوحيد

المثنى بن حارثة

المثنى بن حارثة

قاهر الفرس ورافع راية التوحيد

المثنى بن حارثة الشيبانى ، واحد من أعظم الشخصيات التى لعبت دورًا مهمًا ، بل بالغ الأهمية فى تاريخ الفتوحات الإسلامية الكبرى فى صدر الإسلام. ورغم هذا الدور الهائل الذى قامت به هذه الشخصية المبهرة ، فإن الكثيرين يجهلونه؛ لأن المؤرخين والدارسين لم يسلطوا عليه الأضواء كما ينبغى.

فهو ينتسب إلى أحد بطون قبيلة بكر بن ربيعة ، تلك القبيلة التى اشتهرت بين القبائل العربية بتحديها دولة الفرس ، وتصديها لها فى بعض المعارك ، والانتصار على من تصدى لهم من جيوش الفرس. لقد حققت هذه القبيلة الانتصار فى تحديها لهذه الإمبراطورية البالغة القوة والعنف ، رغم أن اسم الفرس كان كافيًا لأن ترتجف منه القلوب، فهى إمبراطورية بالغة القوة والجبروت ، لم يتصدَّ لها إلا دولة الرومان التى كانت هى والفرس تقتسمان العالم.

ومن أجل السيطرة على العالم قامت بينهما المعارك المتتالية تنتصر إحداهما حينًا، وتنهزم حينًا آخر ، والحرب بينهما سجال لا تنتهى ، فكيف تتصدى قبيلة تدفعها النخوة العربية للتصدى لمثل قوة الفرس إلا أنها قبيلة كانت تمتاز بالشجاعة وإباء الضيم ، والموت فى سبيل الكرامة.

والمثنى بن حارثة قد تصدى هو الآخر لإحدى الفرق الفارسية، وانتصر عليها، واستولى على كثير من الغنائم فى معركة لا تُنسَى على شاطئ الفرات، وهذا الانتصار الذى حققه جعله يوقن أن الفرس رغم قوتهم يمكن التصدى لهم فى معركة جانبية ، وإن كان فى نفس الوقت يؤمن أنه من المستحيل الانتصار على الفرس كدولة لها كل هذه السطوة والقوة والجيوش المدربة.

وكان أيضًا يؤمن أن القبائل العربية متفرقة لا تجتمع، ولا تتعاون مع بعضها، وليس هناك هدف مشترك يوحد بينها ، ويجعل من العرب قوة قادرة على التصدى لمن يريد أن يتربص بهم الدوائر. كان يؤمن بذلك وينتابه الأسى. فلولا جدب الصحراء فى شبه الجزيرة العربية وفقرها الشديد لداستها خيول الفرس ، وأحكمت عليها السيطرة ، واستعبِدتها كما استعبدت بقية شعوب العالم من إحدى القوتين العظميين فى العالم ،

الفرس أو الرومان.

فلم تلفت شبه الجزيرة العربية نظر أحد ، وليس لها أية قيمة أو منفعة،فصرفوا النظر عنها باستثناء بعض أجزاء من اليمن.

وذات يوم جاءته الأنباء بأن أحداثًا خطيرة وقعت فى الحجاز ، وأن هناك نبيا يدعو إلى الإسلام ، وأن هذا النبى العظيم يدعو إلى كل ما هو عظيم ونبيل وجليل ، وأنه يأتيه الوحى من السماء، فدَعْوَتُه شريعة ومنهاج حياة يربط الإنسان بأخيه الإنسان بروابط المودة والحب والتعاون والرحمة ، ويجعل لحياة الإنسان معنى باعتناقه عقيدة التوحيد، فالوجود لم يأت اعتباطًا ، ولكن هناك الخالق الأعظم ، الذى أوجد الوجود من عدم ، وأن حياة الإنسان فى الدنيا لا تنتهى بالموت، بل إن وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى يجازى فيها المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته، والإنسان الذى يريد سعادة الدارين عليه أن يؤمن بالله ويستقيم.

شدَّتْه هذه الدعوة كثيرًا ، وهو يرى أنها هى التى ستوحد بين قبائل العرب ، وتجعل منهم قوة لم يعرفها العرب فى كل تاريخهم. ولكن هذه الأخبار التى كانت تصل إلى المثنى ، بعيدًا، هناك على شاطئ الفرات كانت تصل إليه ناقصة الدقة والوضوح.

إنه يسمع عن معارك طاحنة بين المسلمين والمشركين ، ويسمع

أيضًا عن الانتصارات التى يحققها الرسول الكريم ﷺ ، ويسمع أيضًا عن شخصيته الآسرة بقوتها وجلالها وسمتها العظيمة. ويسمع عن أخلاقياته الرفيعة وزهده وتقشفه.

ودفعه الشوق إلى أن يتوجه إلى موطن النور ، إلى مدينة رسول الله ﷺ ؛ ليرى أعظم من عرفته الحياة فى جلاله وعلمه وورعه وتقواه. وكان ذلك فى العام التاسع الهجرى، حيث كان الإسلام قد ثَبَّتَ أقدامه.

وحيث إن الدولة قد توطدت أركانها ، وبمعنى أدق أصبح العرب لأول مرة دولة على رأسها النبى الخاتم ، ودستورها القرآن الكريم وسنة آخر رسل الله ، وكان الناس قد دخلوا فى دين الله أفواجًا، وطهرت الكعبة من الأصنام.

شعر المثنى من أعماقه بالإيمان يسرى فى كل نقطة من دمه، وتوجه إلى أعظم رسل الله فأعلن إسلامه ، وعاد إلى شاطئ الفرات وخياله يرسم له صورة مشرقة لمستقبل العرب والإسلام. لم يعد العرب قبائل متنافرة متحاربة ، بل أصبحوا ينضمون تحت لواء دولة واحدة ، وعقيدة توحد بينهم على الحب والمودة والرحمة والنظرة المتفائلة إلى غد أكثر أملاً وإشراقًا. ورأى بعين خياله أن المستقبل لهذه الأمة التى يمكنها أن تواجه القوى العظمى

وتنتصر عليها ، بل إن الرسول الكريم ﷺ قد خرج بجيش إلى تبوك ليجابه الروم ، ولكنهم رغم جيوشهم الكثيفة لم يستطيعوا مواجهته ﷺ.

إنه الفجر الجديد إذن. إنه النور الذى سوف يضىء ظلمات الدنيا ومتاهات الوجود.

وينتقل أعظم من عرفته الحياة إلى رحاب ربه العظيم ، فتنتاب المثنى الأحزان ، ويشعر فى أعماقه بالأسى. ليته كان معه فى معاركه التى خاضها ، وهو الإنسان الذى عشق الحرب ومقارعة الأعداء. بل إن هناك فَرْقًا بين الحروب التى عشقها قديمًا ، وليس وراءها من دافع سوى الكبرياء وذيوع الصيت ، وبين الجهاد فى سبيل الله، حيث الشهادة فى سبيل الله أسمى ما يسمو إليه المؤمن. فالله - سبحانه وتعالى - يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

كم كان أمله أن يستشهد فى سبيل العقيدة ليكون واحدًا من هؤلاء الذين يتمتعون برضاء الله ، وينطبق عليهم قوله تعالى:

﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

وسرعان ما زادت أحزان الرجل وهاله ما يحدث. فما كاد الرسول العظيم ينتقل إلى رحاب الله حتى ارتد البعض عن الإسلام وأراد البعض الآخر أن يعطل ركنًا من أركان الإسلام ، وهو عدم دفع الزكاة. هال المثنى أن يرى العرب وقد ارتد الكثيرون منهم عن دين الله.. هذا الدين الذى أعزهم بعد ذل ، ورفع هامتهم بعد طول هوان. مالهم لا يريدون أن يرتفعوا إلى القمة الشامخة التى رفعهم إليها الإسلام!

وقرر المثنى أن يخوض المعارك ضد أعداء الله دون أن يكلفه أحد بذلك. وقد أعجبه تلك الروح الشجاعة العملاقة التى كانت تتمثل فى أبى بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ، وتصديه للمرتدين، فى نفس الوقت الذى أصر فيه أن ينفذ ما كان النبى الكريم ﷺ يريد تنفيذه بأن يرسل جيش أسامة بن زيد إلى الشام للانتقام لشهداء مؤتة.

وبدأت سحابات الأسى تنزاح من أمامه وهو يرى المواجهة الشجاعة لأعداء الله فى كل الميادين. وقرر أن يقوم بدور إيجابى فى معارك المصير ، فانضم مع بعض رجاله من قبائل ربيعة وشيبان إلى علاء بن الحضرمى الذى كان يواجه المرتدين فى البحرين، وجاهد فى هذه المعارك جهادًا ملحوظًا ، بل إنه استولى

على القطيف، وتابع زحفه حتى وصل إلى القرب من الفرات ، حيث كانت كثير من قبائله العربية خاضعة لسلطان دولة الفرس ، التى تسيطر على العراق كله.

كم كانت نفسه تتوق إلى طرد الفرس من العراق كله ، فاندفع بجيوشه إلى أرض فارس لتنضوى هى الأخرى تحت لواء الإسلام.

ولكن كيف يتحقق له ذلك ؟!

إنه رأى الرسول ﷺ كان قد أعد العدة لمجابهة الروم انتقامًا لشهداء مؤتة ، وأن الصديق يقوم بتنفيذ أوامر الرسول ، ولكنه يريد أن يكون الجهاد أيضًا مع الفرس ، وأن تنتهى أسطورة الفرس والرومان فى نفس الوقت ، ويكون النصر لدين الله، وترتفع رايات التوحيد على أمم طالما أضْنَتْها وعذبتها سياط هؤلاء الطغاة.

وكم كان عظيمًا أن يضرب هو نفسه المثال فى الجهاد ، ويطلق صيحته المدوية للجهاد ضد الفرس ، حتى يهوِّنَ من أمرهم أمام المسلمين ، فإذا به يتقدم وبصحبته أخواه «المعنى» و «مسعود» ومعهم رجال من قبيلته متقدمًا نحو مصب الفرات ودجلة؛ ليلتقى بجنود من الفرس، فيحاربهم وينتصر عليهم، ويحقق مكاسب هائلة للإسلام. وتصل أنباء انتصاراته إلى الخليفة فى المدينة،

فيُعجَب لجسارته وشجاعته، ولم يكن قد سمع عنه من قبل ، حتى رآه حين قدم إلى المدينة يطلب منه مددًا من الجيش ، يُعينه على هزيمة الفرس.

ولقد عجب الصديق أول الأمر من هذا الطلب العجيب ، فهو قد أرسل الجيش لمحاربة الروم ، ولم يكن يدور بخلده أن يحارب الفرس فى نفس الوقت ، ومن أين له بالجيوش التى تحارب الروم والفرس فى وقت واحد ، وهما أكبر قوى العالم فى ذلك الزمان؟!

عرض المثنى على خليفة رسول الله ﷺ عرضًا سرعان ما انشرح له قلب أبى بكر. لقد عرض أن يشترك فى الجهاد هؤلاء الذين ارتدوا عن الإسلام ، ثم عادوا إلى الدين بعد أن وجه إليهم الصديق الحملات العسكرية لتأديبهم ، وقتل من يرتد منهم عن الإسلام ، إنها فرصة أمامهم للتوبة والرجوع إلى الله ، فالجهاد سوف يزكى نفوسهم ويطهرها ، وسيصبح للمجاهد إحدى الحسنين : النصر أو الشهادة ، فإذا عاش عاش عزيزًا مُكلَّلاً بالغار وغنائم الحرب ، وإن مات فقد مات شهيدًا فى سبيل الله.

وافق أبو بكر على اقتراح المثنى ، ولكنه كان يعانى المرض. وعندما شعر باقتراب الرحيل ، استدعى عمر بن الخطاب ،

وأوصاه أن يحقق مطلب المثنى بن حارثة ، ويرسل معه المجاهدين لغزو الفرس ، وكانت وصيته لعمر :

«اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به . إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فإذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى. وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس معه. ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم. وقد رأيت متوفى رسول الله وما صنعت ، ولم يصب الخلق بمثله».

وينتقل الصديق إلى رحاب الله ، ويبايع الناس عمر بالخلافة.

ويحقق الفاروق وصية صاحبه على الفور ، فيندب الناس للجهاد مع المثنى ضد الفرس ، ويقوم خطيبًا بين الناس يحثهم على الجهاد فى سبيل الله ، ويقف المثنى هو الآخر خطيبًا بين الناس يحثهم على جهاد الفرس ، ويُهوِّنُ من أمرهم ، وكيف أنه انتصر عليهم ، وأنه من الممكن قهرهم.

لقد كان المثنى له دوره الهائل عندما ساعد خالد بن الوليد فى معاركه ، ثم كانت له مواقفه البطولية التى خلدها التاريخ الإسلامى عندما حارب تحت إمرة أبى عبيدة بن مسعود الذى ولاه عمر بن الخطاب القيادة ، وهو أقل كفاءة من الناحية العسكرية من

المثنى. وعن طيب خاطر ظل المثنى الشيبانى جنديا مقاتلاً لا يريد سوى النصر أو الشهادة ، دون أن يتوقف عند أحقيته فى القيادة ، وأنه هو الذى شجع على حرب الفرس. لقد تناسى نفسه فى سبيل هدف أكبر وهو العقيدة والذود عنها ، والجهاد فى سبيلها حتى النَّفَس الأخير.

معركة الجسر وحشد الفرس:

وقد كانت إحدى المعارك الضخمة التى خاضها جيش المسلمين تلك المعركة التى تُسمَّى «معركة الجسر» ، فقد حشد الفرس جيشًا ضخمًا تتقدمه الفيلة المدربة على القتال بقيادة «جاذويه» ، ووقف الجيشان بعضهما أمام بعض يفصل بينهما جسر الفرات.

وسأل «جاوذيه» القائد العربى: من الذى يعبر النهر إلى الآخر؟ وكان من رأى المثنى أن يعبر الجيش الفارسى؛ ليكون هناك فرصة أمام المسلمين للكر والفر والانسحاب إلى الصحراء لو استدعى الأمر، حيث يجيدون المعارك فى الصحراء. ولكن أبا عبيدة رأى وقد أخذته النخوة أن يعبر هو بجيوشه إلى الضفة الأخرى . وأخذ الحماس بعض المسلمين، فحطم الجسر؛ حتى يتفانى المسلمون فى القتال. ووجد المسلمون أنفسهم وجهًا لوجه أمام جيوش جرارة ومسلحة بأعتى الأسلحة ، تتقدمها الأفيال الضخمة

التى أخذت تشق طريقها وسط جيش المسلمين ، ودب الذعر بين صفوف المسلمين ، وتقدم أبو عبيدة بشجاعة منقطعة النظير ليضرب أحد الفيلة بسيفه؛ مما حدا بالفيل أن يدوس هذا القائد الشجاع تحت أقدامه؛ ليلفظ أنفاسه الأخيرة مستشهداً فى سبيل الله.

ورأى المثنى بنظرته العسكرية وخبرته أن الهزيمة المُرَّة سوف تلحق بالمسلمين ، فرجع مع جماعة من المسلمين، ليقيم الجسر؛ ليعبر عليه المسلمون عائدين إلى الشاطئ الآخر؛ ليجمعوا صفوفهم للمعركة الفاصلة. ولأمر لا يدريه أحد لم يتابع الفرس المسلمين، وإلا كانوا قد قضَوْا عليهم وغيَّروا مجرى التاريخ.

وكانت إرادة الله أنْ جَمَعَ شمل العرب مرة أخرى تحت قيادة المثنى، الذى وقف أمام جيوش الفرس للمرة الثانية يفصل بينهم شاطئ الفرات وكانوا تحت قيادة «مهران»، وطلب المثنى من الفرس (عند البويب) أن يعبروا هم لملاقاته.

وما كادوا يتقدمون ، حتى لاقتهم سهام المسلمين ، ولم يأبَهِ المثنى هذه المرة بالفيلة ، فقد أخذ يضرب خراطيمها بسيفه. وتبعه المسلمون، ودارت الدائرة على الفرس ، وتحقق نصر مؤكد للمسلمين، وردوا على هزيمتهم عند الجسر وحققوا نصراً ساحقًا.

وقد ساعد المسلمين فى هذه المعركة العرب المسيحيون؛ لصلة الدم والقربى، وقاتلوا معهم حتى تَحَقَّقَ النصر.

ويروى الچنرال جلوب فى كتابه «الفتوحات العربية الكبرى» عن هذه المعركة التى غيرت التاريخ العالمى كله بقوله:

«... ومضت المعركة سجالاً .. يتخللها الصراخ والهرج والمرج.. ولكن الفرس لم يُفْلِحوا فى التقدم شبرًا واحدًا .. وأخيرًا قرر المثنى أن يشن هجومه المضاد ، ووضع نفسه فى مقدمة رجال تغلب ونمير من النصارى ، مهيبًا بهم أن يثبتوا عروبتهم.. رغم أنهم ليسوا من المسلمين .. وقاد الهجوم بنفسه مستهدفًا قلب جيش الفرس ودار اشتباك رهيب .. ولفت الميدان سحب قاتمة وكثيفة من النقع .. وقتل فتى نصرانى قائد الفرس مهران.. وسرعان ما انهار قلب دفاع العدو .. فتقدَّمَ الجيش العربى كله إلى الأمام .. وكان فى مقدمتهم جرير على رأس بنى بجيلة، وعرقجة على رأس الأسد ، ومسعود أخو المثنى على رأس بكر . وبدأ العدو ينهار .. وأخذ رجاله يتجهون إلى الجسر على الفرات القائم وراء الجبهة .. ولكن المثنى الذى نفذ إلى القلب .. وصل إلى الجسر أولاً .. وحال بين العدو وبين الوصول إليه.

وعندما رأى الفرس طريق هروبهم قد سد عليهم .. استداروا

يائسين ليشقوا طريقهم عبر صفوف العرب المتقدمة منهم . . وحَمِىَ وطيس القتال بين الفريقين . . وارتفع عدد الضحايا . . وأصيب مسعود أخو المثنى إصابة بالغة . . وعندما رأى الوهن لحق أبناء عشيرته من اصابته . . هتف بهم : ارفعوا رايتكم . . وسينصركم الله . . لا تقنطوا لموتى . . وقتل أيضًا الإنسى بن هلال زعيم قبيلة نمير المسيحى وهو يهجم مع المثنى . . وتحطَّمَ جيش الفرس وقد أصابه الهلع والفوضى . . وظل المسلمون يحتفظون بالجسر . . وراح الفرس يفرون مذعورين هنا وهناك . . وبعضهم يقذف بنفسه فى النهر . . وبعضهم يحاول الاختباء تحت الأعشاب النامية على ضفافه . . والبعض الثالث يستدير ليلقى مصرعه على أيدى الظافرين».

وهكذا كانت معركة البويب انتقامًا لجسر الدامية.

وعندما انتهت المعركة فُرِشَ بساط من الشعر على الأرض العارية، جلس المثنى يستريح عليه من عناء القتال ، ويريح أعصابه مما لحقها من توتر، وتوافَدَ عليه قادة العرب واحدًا إثر آخر يهنئونه بالنصر ، ثم جلسوا متحلقين حوله على التراب، وأخذوا يستعيدون أحداث المعركة، وقال المثنى :

«لقد حارب العرب الفرس فى أيام جاهليتهم وأيام إسلامهم،

وكان المائة من الفرس يغلبون فى الجاهلية ألفًا من العرب. أما اليوم والحمد الله والشكر له يهزم المائة من العرب ألفاً من الفرس».

ويعدد القائد الإنجليزى عبقرية المثنى بقوله:

« ويبدو أن هذا الرجل (المثنى) كان يتصف بجميع الصفات التى تلازم القائد العسكرى العظيم، ولا ريب أن تمكنه بعد كارثة الجسر من جمع جيش جديد وحشده يدل دلالة واضحة على ما فى هذا القائد العظيم من كفاية ، فالمحاربون الذين تمكن من حشدهم إنما كانوا بدوًا لا ضابط لهم ولا زاجر ، وكانوا حتى ثلاث سنوات خلت أو سنتين يشتبكون فى معارك مع المسلمين إبان حروب الردة. ومن هنا يكون التفسير الصحيح لانضباطهم الآن تحت لواء المثنى هو ما يتمتع به هذا القائد من مزايا».

ويبدو أن الإصابات والجراح التى أصيب بها القائد العظيم أثناء معارك الجسر قد أنهكت قواه ، فإذا به يمرض ، ثم ينال الشهادة، دون أن يحقق حلمه العظيم بالقضاء على دولة الفرس كلها ، ودخولها تحت لواء الإسلام.

وسرعان ما تحقق هذا الأمل العظيم عندما أرسل عمر بن الخطاب جيشًا كبيرًا بقيادة سعد بن أبى وقاص؛ ليجابه الفرس ، ويواصل مسيرة القائد العظيم المثنى بن حارثة ، حيث يحقق

انتصارًا خالدًا ومذهلاً على الفرس فى معركة القادسية. وانتصر عليهم بعد ذلك بعامين فى «المدائن» ومن قبلها «نهاوند» ، وتصبح فارس تحت قبضة المسلمين ، وترتفع كلمة التوحيد ، ويتحقق أمل هذا القائد العظيم المثنى بن حارثة أحد الأبطال الذين لم يأخذوا حقهم فى التاريخ، مع أنه واحد من أعظم القادة المسلمين الذين مهدوا الطريق ليكسب الإسلام هذه الأرض الشاسعة ، ويرثوا أكاسرة الفرس ويتحقق وعد الله بالنصر .

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

****



لمحات من حياة

الإمـــام الحـــسين



الإمام الحسين

فى ذكرى ميلاد النبى محمد ﷺ، يتداعى إلى الذهن كل ما هو عظيم وجليل ورائع ، وتتجلى المثل الإسلامية العليا، والقيم الرفيعة التى غزت القلوب والعقول ، ومدت نور الإسلام إلى أبعد مدى ، حتى إنه لم تمضِ على انتقال الرسول الكريم إلا فترة قصيرة حتى وجدنا الإسلام يوطد دعائمه من الصين شرقًا حتى الأندلس غربًا ، ويصل إلى مساحات شاسعة من الأرض ما كانت تخطر على البال.

وفى مناسبة ميلاد الرسول العظيم ﷺ، عدت بخيالى، بينما أنا فى رحاب الحسين حفيد الرسول الكريم ﷺ ، وسيد شباب أهل الجنة ، إلى فترة مهمة من فترات التاريخ الإسلامى ، وما لعبته السياسة عبر التاريخ فى مسار التاريخ نفسه.

فما هى قصة الإمام الحسين مع الأيام؟

وكيف جاء رأسه الشريف إلى مصر؟

إن فى سيرة الحسين عبق النبوة ، وشيئًا من رسول الله ،

وقبساً من نوره ﷺ.

وكان النبى ﷺ يحب الحسين حبا شديدًا ، حتى إنه سمع بكاءه ذات يوم ، فقال لأمه فاطمة الزهراء: « ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى؟!».

لقد وقف الرسول ﷺ يومًا خطيبًا فى المسجد ، وبينما هو يعظ الناس، جاء الحسن والحسين ، وعليهما قميصان أحمران وهما يعثران ويقومان ، فلم يملك الرسول نفسه ، ونزل إليهما وأخذهما ، وعاد إلى المنبر وهو يضمهما إليه ، ويضعهما فى حجره ويقول:

«صدق الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾» [التغابن: ١٥].

وبعد حجة الوداع مر الرسول بابنته فاطمة الزهراء، وقال لها:

« السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته. الصلاة رحمكم الله. وتلا قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وتمضى الأيام ، ويشعر الرسول العظيم ﷺ بقرب الرحيل

إلى أكرم جوار ، فيمضى إلى المقابر ويزورها ويقول:

«السلام عليكم يا أهل المقابر لِيَهْنَ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلَتِ الفِتَنُ كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها. الآخرة شر من الأولى».

ومرض النبى ، وجاءت فاطمة تزور والدها، فقال لها: مرحبًا يا ابنتى.

وأقعدها عن يمينه، ثم سارَّها بشىء ، فبكت. ثم سارَّها ، فضحكت. فلما سألتها عائشة عما أبكاها وأضحكها، قالت:

« ما كنت لأفشى سر رسول الله ».

وأتت فاطمة بالحسن والحسين إلى رسول الله ﷺ وقالت له:

يا رسول الله، هذان ابناك فورِّثْهما شيئًا.

فقال ﷺ:

« أما الحسن فله هيبتى وسؤددى. وأما الحسين فله جرأتى وجودى».

ثـــــورة الحسين:

وبعد خدعة التحكيم تمكَّنَ معاوية بدهائه ولينه وسياسته أن يتولى الخلافة ، ويُحوِّلها إلى مُلُك ، ثم أخذ البيعة بعد ذلك باللين حينًا ، وبالقوة حينًا آخر ، وبالخداع مرة ثالثة لابنه يزيد من بعده.

وتولى يزيد الحكم بعد والده ، ورأى الحسين أن بنى أمية قد اعتدَوْا على مبدأ مهم من مبادئ الحكم فى الإسلام ، وهو الشورى ، وقرر أن يواجه سلطان بنى أمية، رغم أنه لم يكن يملك من القوة والسيادة والسلطان شيئًا؛ فالأمر بين أيديهم ، والخلافة معهم.

وكان معاوية يعلم أن الحسين سيكون ألد خصوم يزيد هو وعبدالله بن الزبير ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالرحمن بن أبى بكر. وكان يتوقع من أهل العراق أن يستدعوا الحسين؛ ليثور ضد ابنه يزيد، فأوصى ابنه بأن يأخذهم بالشدة. ولكن إذا ظفر بالحسين فعليه أن يأخذه باللين لقرابته من رسول الله ﷺ، فقد أوصى ابنه فيما يختص بالحسين:

« وأما ابن على، فإنه رجل خفيف ، ولن يتركه أهل العراق حتى يُخرِجوه ، فإن أخرجوه وظفرْتَ به فاصفحْ عنه ، فإن له

رَحِمًا ماسة وحقا عظيمًا ، وقرابة من محمد ﷺ».

وهذه النصيحة لم يأخذ بها ابنه يزيد فيما بعد ، حين تأزمت الأمور ، وطلب أهل العراق من الحسين القدوم لمبايعته ، وأرسل لهم ابن عمه مسلم بن عقيل ، والتفوا حوله. ولكنهم سرعان ما انفضوا عن مسلم عندما قرر الأمويون مهاجمة ثورة أهل العراق ، وقتل مسلم بن عقيل ، وانفض الناس ، وعلم الحسين بكل هذه الأحداث ، ولكنه قرر السير نحو الكوفة ، ولم يسمع نصيحة أحد من الذين طلبوا منه العودة ، خرج ومعه بنوه وإخوته من آل البيت، وأصر على الذهاب إلى الكوفة ، وكان قد نصحه عبدالرحمن بن الحارث، فقال له:

« بلغنى أنك تريد العراق. وإنى مشفق عليك أن تأتى بلدًا فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت المال. وإنما الناس عبيد الدرهم والدينار. فلا آمن عليك أن يقاتلك مَنْ وعدك بالنصر ، ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه».

ونصحه ابن عباس كثيرًا . وكان مما قال:

« أقم بهذا البلد، فإنك سيد الحجاز. فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فاكتب إليهم فلينفوا عمالهم وعددهم ثم أقدم عليهم ، فإن أبيْتَ إلا أن تخرج فسِرْ إلى اليمن؛ فإن بها

حصوناً وشبابًا، وهى أرض طويلة عريضة، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عند الناس فى عزلة فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعاتك، فإنى أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحب فى عافية».

ولم يسمع منه الحسين.

فقال له ابن عباس:

«فإن كنت سائرًا ، فلا تسِرْ بنسائك وصبيانك؛ فإنى أخاف أن تُقتل كما قُتل عثمان ونساؤه وولده».

ولم يسمع منه الحسين.

يــــوم كـربـــلاء:

ويمضى الحسين ثائرًا ضد بنى أمية ، وهو يعرف أنه بهذا العدد القليل من الرجال من آل البيت لا يمكنه إسقاط حكم بنى أمية ، وأنه سوف يلاقى الموت لا محالة. ولكنه كان يعرف أن دمه الشريف سيكون صيحة ضد الظلم ، وأن الناس قد يفيقون على ما أوصله حكام بنى أمية بتحويلهم الخلافة إلى ملك عضوض.

وفى الطريق قابله الشاعر الفرزدق، فسأله الحسين عن أحوال

الناس ، وقال له الفرذق حقيقة الواقع ، وكان مؤلمًا :

قال له « قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء » .

ومع ذلك أصرَّ الحسين على المسير مهما تكن العواقب ، يدفعه إلى ذلك - بجانب عمق إيمانه - إصرار أبناء عقيل على الثأر لمقتل مسلم .

جيش هائل أرسله زياد بن ربيعة بقيادة عمر بن سعد؛ ليحاصر به سبط رسول الله ﷺ .

ومضى الحسين ، وإذا به يُواجَه بجيش يزيد ، ووجد الحسين أن المعركة غير متكافئة ، فطلب من أصحابه أن ينصرف مَنْ يريد أن ينصرف . وانصرف كثيرون تحت جنح الظلام ، ولم يبقَ إلا آل البيت معه .

وسأل عمر بن سعد الحسين عما استقدمه ، فقال له الحسين :

«إن أهل الكوفة طلبونى ، ولكن إذا ما أكرهونى أنصرف عنهم» .

وأرسل عمر بن سعد إلى ابن زياد برغبة الحسين هذه فى العودة . ولكن ابن زياد أراد الانتقام من الحسين ، وأن يتخلص

منه نهائيا. حتى إنه رفض أن يعرض هذا الأمر على الخليفة يزيد ابن معاوية؛ ليرى فى ذلك رأيه.

وردد قول الشاعر:

الآنَ إذْ عَرَضَتْ مخالِبُنا بِهِ   يرجو النَّجاةَ ولاتَ حينَ مناصِ

وعرضوا على الحسين عروضًا مُذِلَّةً لم يقبلها، وفضَّل الموت على الحياة. وحاصروا الحسين فى كربلاء ، ومنعوا عنه وعن أهله الماء.

وكان عمر بن سعد - وهو ابن القائد العظيم سعد أبن أبى وقاص - يخشى أن يكون دم الحسين على يديه ، وهو الذى قال فيه النبى العظيم:

«أنا من الحسين ، والحسين منى».

«الحسين سيد شباب أهل الجنة».

لقد طلب الحسين مهلة ، حتى يطلب من أعوانه التسلل تحت جنح الظلام؛ لأن الأمويين لا يريدون سواه. فليُقتَلْ هو ، وليسِلْ دمه الطاهر هو وحده. ولا داعى لسفك الدماء فى معركة غير متكافئة. لقد قال لأصحابه:

« إنكم لتعلمون أن القوم لا يريدون غيرى ، وأن يومى

معهم غدًا ، وإنى قد أذنت لكم جميعًا، فانطلقوا فى غير حرج، ليس عليكم من ذمام. هذا هو الليل قد غشيكم ، فانطلقوا فى سواده قبل أن يطلع النهار وانجوا بأنفسكم».

ولكن كلمات الحسين لم تزد آل البيت إلا تمسكًا بالقتال والاستشهاد معه ، فيصيح أخوه لأبيه العباس بن على :

«معاذ الله والشهر الحرام». وماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم؟ نقول: تركنا سيدنا وابن سيدنا عرضًا للنبال والرماح وجزرًا[1] للسباع ، وفررنا رغبة فى الحياة ؟! معاذ الله . . معاذ الله.

والأعجب أن ابنه الصغير «على بن الحسين» يسأل والده العظيم:

«بل نحيا بحياتك ونموت معك. ألسنا على الحق يا أبتاه ؟»

ويقول الحسين:

«بلى والذى أنفسنا فى يده».

فيقول الغلام:

«إذن والله لا نبالى».

(١) جَزَرُ السباع : بفتحتين اللحم الذى تأكله والمعنى المراد فى النص : أنهم تركوهم للسباع تأكلهم بعد أن قتلوا.

يـــــوم حـــــــــزين:

وفى الصباح التالى . . هذا الصباح الحزين (اليوم العاشر من المحرم سنة٦١هـ) كان ٧٢ شخصًا بقيادة الحسين يواجهون جيشًا مكونًا من آربعة آلاف مقاتل. ويصر جيش ابن زياد على قطع رأس الحسين. ويتساقط آل البيت الواحد تلو الآخر.

ويحارب الحسين بشجاعة لا يعرف التاريخ لها مثيلاً ، ولكن الحسين العظيم بكى فى لحظة ، ولم يكن بكاؤه خوفًا ولا جزعًا، فقلبه لا يعرف الخوف ولا الجزع .

لقد بكى عندما قُتِل القاسم بن الحسن ، وهو صبى صغير. ولقد نادى عمه الحسين أن ينقذه من الموت ، وأسرع الحسين، وضرب عنق قاتله ، وتوجَّه إلى ابن أخيه قائلاً وقد ضمه إليه:

«عزيز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك فلا ينفعك فى يوم كثر واتره وقل ناصره».

ومع هول المعركة ، كان الكثيرون يخشون أن يكون قتل سبط رسول الله على أيديهم ، وكانوا يتحاشون لقاءه ، إلى أن أنهك الحسين القتال طوال هذا اليوم القاتم ، وسقط إعياء ، فهو يقاتل وحده جيشًا مكتمل العدة والعتاد ، ويقترب منه رجل انتزع من قلبه حب آل البيت وهو «شمر بن ذى الجوشن»، فيتقدم ويجتز رأسه الشريف.

والعجيب أنهم حملوا رأس الحسين إلى الكوفة ، فأخذ ابن زياد يعبث برأس الحسين بقضيب في يده. واغتاظ أحد الحاضرين وقال له:

«ارفع قضيبك، فطالما رأيت رسول الله ﷺ يضع فمه على فمه».

فرفع ابن زياد القضيب.

وتغرب شمس هذا اليوم الحزين في كربلاء على مشهد مثير وحزين ، ففي العراء أشلاء آل بيت الرسول. ومرت السيدة زينب - أخت الحسين - ورأت أشلاء أخيها وآل البيت، فقالت في أسى عميق وهي توجه نداءها إلى جدها ﷺ:

«يا محمداه .. صلت عليك الملائكة .. وهذا الحسين بالعراء.. مرمل بالدماء .. مقطع الأعضاء..

يا محمداه .. وبناتك سبايا .. وذريتك تسفى[1] عليها الصبا».

فى بيـــت يزيـــد:

ويؤخذ آل البيت سبايا إلى بيت يزيد. وينظر يزيد إلى رأس الحسين ويقول لمن حوله:

أتدرون من أين أوتى هذا؟

قال : أبى على خير من أبيه ، وأمى فاطمة خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه ، وأحق بهذا الأمر منه.

فأما قوله : أبوه خير من أبى فقد حاج أبى أباه ، وعلم الناس أيهما حكم له .

وأما قوله : أمى خير من أمه ، فلعمرى لفاطمة ابنة رسول اللهﷺ خير من أمى.

وأما قوله: جدى خير من جده، فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا ندا ، ولكنه إنما أوتى من قبل فقهه ولم يقرأ:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

---

(١) المعنى المراد أن الرياح تهب عليهم وتغطيهم بالتراب بعد أن قتلوا.

ويقول المؤرخون إن يزيد دعا آل البيت للحضور ، وإنه قال لعلى بن الحسين (صبى صغير):

« يا على .. أبوك الذى قطع رحمى ، وجهل حقى ، ونازعنى سلطانى ، فصنع الله به ما قد رأيت».

ويرد عليه على ببلاغة لا تتناسب مع سنه الصغيرة:

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

ويتوعد يزيد آل البيت ، فترد عليه زينب رضى الله عنها:

« أنت أمير مُسلَّط تشتم ظالمًا وتقهر بسلطانك ».

واستحيا يزيد..

وقال بعض الرواة إن يزيد ندم على قتل الحسين ، وإن عينيه دمعتا وإنه قال لمن أحضر له رأس الحسين :

« كنت أرضى من طاعتك بدون قتل الحسين. لعن الله ابن سمية، أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه».

وقد قابل آل بيت يزيد السيدة زينب وآل بيت الرسول بحفاوة

بالغة بعد الحوار مع يزيد ، وإن يزيد نفسه قد جهزهم للرحيل إلى المدينة ، وطلب من على بن الحسين أن يرسل إليه وأن يكاتبه ما يريد.

ويقول الرواة إنه عندما قُتل الحسين لم يكن أحد فى الحجاز يعلم بقتله ، وبينما كانت أم المؤمنين أم سلمة فى فراشها قامت من النوم فزعة وهى تقول:

واحسيناه !! واحسيناه!!

وتجمع حولها الناس عندما سمعوا صراخها وسألوها:

ما الخبر يا أم المؤمنين ؟

- قتل ابنى الحسين.

- وكيف عرفت ذلك وأنت فى المدينة وهو فى الكوفة؟!

رأيت رسول الله وعلى رأسه ولحيته التراب ، فقلت: يارسول الله.. جعلت فداك .. ما هذا التراب الذى أراه على رأسك ولحيتك؟!

قال رسول لله ﷺ: يا أم سلمة الآن رجعت من دفن ولدى الحسين.

فبكى الناس.

وتمضى الأيام ، وينتقم الله من كل الذين سفكوا دم سبط الرسول ﷺ، وتدور عجلة الزمن ، ويحكم مصر «طلائع بن زريق» وكان رأس الحسين بعسقلان ، وكان الغزو الصليبى يهددها، وخشى طلائع بن زريق أن ينتهك الصليبيون مزار الإمام الحسين، فقرر أن يدفن الرأس الشريف فى القاهرة ، ورحب بهذا الاقتراح الخليفة العباس الفائز بالله، وجاء الرأس الشريف فى تابوت من الفضة.

ودفن فى قصر «الزمرد» ، ثم أقام له الصالح ضريحًا يليق بصاحبه، سبط محمد ﷺ ، وتم ذلك فى سنة٥٥٥هـ ، وحضر افتتاح مسجد الحسين الصالح طلائع بنفسه ، ووسط أهل مصر وحب أهل مصر للرسول وآل بيت الرسول ، ودفن رأس سيد شباب أهل الجنة .

لقد آثر الإمام الحسين أن يواجه الطغيان وأن يقول كلمة الحق فى وجه السلطان الجائر مهما كانت العواقب ، وسفك دمه الطاهر ليكون منارًا لكل طلاب الحق ، ألا يخشوا فى سبيله شيئًا مهما كانت أشواك الطريق ، فما أقصر الحياة! وما أتفه ما فيها من سلطان زائل وأمجاد لا تدوم! فلا دوام إلا لمن يعيش بالله ولله. وللآخرة خير وأبقى.

❊ ❊ ❊



عاش مجاهدا ومات شهيدا

عبدالله بن الـزبير



عبدالله بن الزبير

عاش مجاهدا .. ومات شهيدا

قصة عبدالله بن الزبير قصة عجيبة.

قصة إنسان عاش حياته مجاهدًا فى سبيل الله بالسيف. فما أكثر المعارك التى خاضها مجاهدًا فى سبيل الله ، منذ أن اشترك مع والده وهو مازال فى بداية شبابه فى معركة اليرموك ، إلى المعارك العديدة التى خاضها بعد ذلك مشاركًا جيوش الإسلام الزاحفة تنشر أنوار الله فى مشارق الأرض ومغاربها.

وكان له بجانب جهاده بالسيف جهاد آخر أشد من الجهاد فى ميادين القتال ، وهو جهاده ضد النفس والهوى ، فما أكثر ما قاله الرواة عن عبادته وتهجده وكثرة صيامه وخشوع فى صلواته. وصفه ابن عباس بقوله:

«كان قارئًا لكتاب الله ، متبعًا سنة رسوله ، قانتًا لله، صائمًا فى الهواجر من مخافة الله ، ابن حوارى رسول الله، وأمه أسماء بنت الصديق ، وخالته عائشة زوجة رسول الله. فلا

يجهل إلا من أعماه الله».

هذا الرجل الذى لعب دورًا مهما فى التاريخ الإسلامى ، وبايعه البعض بالخلافة في ظل الحكم الأموى ، واستطاع أن يستقل بالحجاز فى فترة من أخطر فترات التاريخ الإسلامى ، نرى فى قصة حياته العديد من الأشياء التى يجب أن يتوقف عندها الإنسان ، ويضع تحتها خطوطًا ، متأملاً ودارسًا كيف يكون الرجال فى المواقف الصعبة ، وكيف يربى الإسلام المسلم على القوة والحكمة ومغالبة شهوات النفس والهوى، وأن يكون صلب العود ، مع أعدائه ، لينًا مع إخوانه ، سوط عذاب على أعداء الله.

والتاريخ يقول لنا إن عبدالله بن الزبير وُلِد عند قباء عندما هاجرت أسماء إلى المدينة ، وكان عبدالله لا يزال جنينًا فى أحشائها. وعندما وضعته وهى عند مشارف المدينة استبشر المسلمون خيرًا ، فقد كان قدومه إلى الدنيا خيرًا أزال أسطورة حاول اليهود تثبيتها فى عقول الناس ، وهى أنهم وكهانهم سحروا المسلمين، فلن يستطعيوا الإنجاب ما داموا فى المدينة.

وقد حمل الطفل الصغير إلى الرسول ﷺ حيث بلَّلَ النبى الكريم ﷺ فم الصغير بريقِه ليكون بذلك بركة للطفل الذى شاء

له القدر أن يكون ملء السمع وملء البصر.

ووسط بيئة عميقة الإيمان والإخلاص لله ولرسوله ولدينه ، شب عبد الله ، محبا للحكمة ، محبا لله ورسوله ، شجاعًا مثل والده الزبير بن العوام حوارى رسول الله ومثل أمه أسماء «ذات النطاقين». وكيف لا يكون كذلك وجدُّهُ هو أبو بكر الصديق ، أقرب الناس إلى قلب رسول الله ﷺ وثانى اثنين إذ هما فى الغار؟!

ويشب الطفل الصغير قوى البنية ، ذكى الفؤاد ، جريئًا لا يهاب أحد ، حتى إنهم يروون عنه أن عمر بن الخطاب - وهو أمير المؤمنين، وعمر هو عمر بقوة شخصيته ومهابته - مر على أطفال يلهون فى أحد الشوارع ، وكان من بينهم عبدالله بن الزبير، فهرب الأطفال وتوارَوْا خوفًا من عمر ، وظل عبدالله بن الزبير فى مكانه؛ مما لفت نظر ابن الخطاب، فسأله:

- لماذا لم تذهب مع إخوانك يا غلام؟

ورد عليه عبدالله بهذا الرد العجيب الذى أعجب به بلا شك أمير المؤمنين:

« لم أكن مذنبًا فأخافك ، ولم يكن الطريق ضيقًا فأوسعه لك يا أمير المؤمنين».

ويقول الرواة إن النبى الكريم ﷺ احتجم ذات مرة ، وطلب من عبدالله ابن الزبير أن يأخذ قطرات الدم التى خرجت منه ليسكبها فى مكان ما ، ولكن الصبى قرر أن يشربها؛ حتى يجرى فى ضلوعه دم الرسول الكريم ﷺ.

وتمضى الأيام بالفتى ، فإذا به أصبح شابا قوى البنية ، ذكى الفؤاد ، شجاع القلب ، فصيحًا ، بليغًا. وفى نفس الوقت أصبح شديد التدين ، كثير التهجد ، يصلى فيخشع فى صلاته كأنها ستكون الصلاة الأخيرة ، وعندما يدخل فى الصلاة يستغرق فيها تمامًا، فلا يشعر بمن حوله؛ لأنه بين يدى مولاه.

إنه يرى جيوش الإسلام تبدأ زحفها الساحق أيام جده العظيم أبى بكر الصديق ، فقد اندفعت جيوش الإسلام لتواجه أقوى قوى العالم فى هذا الوقت ، صاحبة الجيوش المدربة على البر والأساطيل فى البحر ، والتى تمتد أملاكها امتدادًا رهيبًا، فتشمل بجانب الشام مصر والشمال الإفريقى كله حتى المحيط الأطلنطى . هذه القوة الرهيبة يتصدى لها المسلمون ، الذين كانوا بالأمس القريب مجرد قبائل متنافرة متنازعة ، لا حول لها ولا قوة ، ولا يمكنها مواجهة حاكم ، مجرد حاكم يحكم ولاية خاضعة للإمبراطورية التى لا تغيب عن ممتلكاتها الشمس.

فإذا بهذه القبائل بفضل دعوة النبى الخاتم ﷺ. قد أصبحت دولة واحدة ، دستورها القرآن ، وسنة رسول الله. وها هى قد أصبحت قوة فتية لا تخشى إلا الله ، يدفعها إيمانها العميق إلى التصدى لهذه الإمبراطورية العظيمة ، فإذا بعبد الله بن الزبير يطلب من والده ويصر أن يشترك معه فى هذه المعارك. وحارب بجانب والده فى صفوف المسلمين ضد الروم فى معركة اليرموك، حيث ظهرت بسالته وشجاعته القتالية.

فى الشمال الإفريقى:

وتمضى خلافة جده العظيم ، ويشاهد الفتى الزحف الساحق للإسلام فى خلافة عمر بن الخطاب ، حيث استطاعت جيوش الإسلام أن تحطم إمبراطورية الفرس ، وتحكم سيطرتها على الشام ومصر ، وتتطلع إلى الزحف الخالد فى الشمال الإفريقى.

وفى زمن الخليفة الثالث ذى النورين عثمان بن عفان ، يتوجه الجيش من مصر بقيادة عبدالله بن أبى السراح إلى الشمال الإفريقى لمجابهة البربر وقائدهم الجسور «جرجير» كما كان يطلق عليه العرب ، أو جريجورى كما كان يطلق عليه أعوانه.

كان هذا القائد عنيدًا فى جند كثيف ، يساعدهم الرومان ،

وطلب عبدالله بن أبى السرح من الخليفة المزيد من المدد ، فأرسل له عبدالله بن الزبير ببعض المدد ، وذهب الشاب الجسور، فعرف أن المعركة تدور بين المسلمين والبربر نهارًا ، ويستريح الجميع ليلاً، فقرر هو خطة جديدة تنهك العدو ، وعرضها على قائد الجيش الإسلامى، فوافقه عليها على الفور ، فقد قسم جيشه إلى فريقين، يحارب بفريق، وعندما يحل المساء ينسحب الفريق المقاتل، ويحل محله الفريق الثانى ، وهكذا لا يتركون للعدو فرصة للاستجمام أو التقاط الأنفاس، فينهك قواه ، ويرغمه على الاستسلام.

ونجحت خطة عبدالله بن الزبير ، وتقدم هو بنفسه ليقود معركة ضارية فى قلب الأعداء ، وتوجَّهَ كالسهم إلى قلب المعركة حيث جرجير، فأرداه قتيلاً ، ومالت كفة النصر لصالح المسلمين، وسرعان ما أذعن العدو للهزيمة بعد أن قتل القائد الذى كان يدفعهم دفعًا إلى مواصلة القتال.

وقرر عبدالله بن أبى السرح أن يذهب عبدالله بن الزبير بنفسه إلى الخليفة فى المدينة يبشره بنصر المسلمين الساحق ، بعد أن فتح الله عليهم ، وحققوا هذا النصر الذى جعل أبواب إفريقية مفتوحة أمام رايات التوحيد.

وأعجب الخليفة بالخطة التى وضعها ابن الزبير ، وفرح بنصر الله، وطلب من عبدالله أن يصعد المنبر ، ويحدِّث الناس عما حدث فى معركة إفريقية ، وبشر عبدالله الناس بالفتح الكبير فى كلمات معبرة وبليغة وموحية ، مما جعل السعادة تغمر الناس جميعًا ، وعلى رأسهم عثمان رضى الله عنه.

ومضت الأيام..

وحدثت الفتنة الكبرى التى راح ضحيتها عثمان رضى الله عنه ، واستشهد ثالث الخلفاء الراشدين.. قُتِل مظلومًا ، وقيل إنه عندما ضُرِب بالسيف وهو يقرأ القرآن فى رمضان تناثرت دماؤه ، ثم توقفت عند الآية الكريمة:

﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقد كان عبدالله بن الزبير - مع سبطى رسول الله ﷺ الحسن والحسين - من الذين دافعوا عن عثمان ، ولكن لكل أجل كتاب، فقد استشهد أمير المؤمنين ، وأقبلت الفتن كالليل المظلم ، أو كالسحابة القاتمة ، فقد اندفع أوار الفتنة ، وأصبح المسلم يجابه المسلم ، وتوقفت الفتوحات ، وأصبح من العسير الخروج من هذه الفتنة التى لعبت دورًا خطيرًا فى مسيرة التاريخ الإنسانى.

وابن الزبير، رغم بطولاته وشجاعة موقفه، فإنه قد أخطأ فى حق الإمام على - رضى الله عنه - يوم جاء واحدًا من المحرضين عليه يوم الجمل ، بل إنه كان من أشد المحرضين لوالده الزبير بن العوام لقتال على.

والمعروف أن الزبير بن العوام رأى ذات يوم عليا وهو يسير بصحبة رسول الله ﷺ ، واتهمه - أى اتهم عليا - بأن به كبرًا، فقاله له الرسول الكريم : ليس به كبر. وسوف تقاتله وأنت له ظالم.

وتحققت نبوءة رسول الله ﷺ ، فعندما خرج الزبير لقتال علىّ ذكَّره الإمام بهذه الحادثة ، فبكى الزبير وقال أنه لو تذكَّرَ هذا ما خرج لقتاله ، وقرر عدم الاشتراك فى القتال بالفعل، وانسحب من المعركة ، إلا أن أحد الذين يبغون دوام الفتنة قتله؛ حتى يظل لهيب الفتنة مشتعلاً ، وذهب فرحًا يحمل سيف الزبير؛ ليعطيه هدية للإمام. وما كاد الإمام العظيم يعلم بنبأ مقتل حوارى رسول الله ﷺ حتى أجهش بالبكاء ، وقبَّلَ سيفه، وقال كلمته التى وعتها أذن التاريخ «هذا السيف طالما جلابه صاحبه الكرب عن رسول الله».

ولكن عبدالله على كل حال كان بشرًا ، والبشر دائمًا يُخطِئون ويُصيبون.

وتمضى الأيام ، وتنتهى خلافة على بن أبى طالب بمقتله على يد أحد الخوارج ، ويئول الحكم إلى معاوية ، ثم يرى معاوية أن يحول الخلافة إلى ملك عضوض وأن يرثه فى الملك ابنه يزيد.

وأراد أن يحقق مبايعة الناس له وهو ما زال على قيد الحياة ، يتخذ وسيلته إلى ذلك الوعد، حينًا ، والوعيد أحيانًا، والذهب فى أحيان أخرى ، وقد عرف عنه اللباقة والسياسة واللين، فهو صاحب الكلمة الخالدة:

«لو كان بينى وبين الناس شعرة ما قطعت ، إذا أرخَوْا شددتها. وإذا شدوا أرخَيْتُها».

وذهب معاوية إلى المدينة ليجتمع ببعض أصحاب الكلمة فيها، ولكنه عاد بخفى حنين ، وعاد مرة أخرى من دمشق إلى المدينة، وكله عزيمة هذه المرة أن يأخذ البيعة لابنه يزيد ، واجتمع بكبار المسلمين، ثم أراد أن يهوِّنَ من أمر عبدالله بن الزبير ، وأنه ليس فى المكانة التى تجعله فى مصاف الرؤوس الكبيرة من قريش، فيرد عليه عبدالله بن الزبير ردًا ألجمه حين قال له وسط جموع الناس:

« أسألكم بالله أتعلمون أنى ابن حوارى رسول الله ، وأن

أباه أبو سفيان ، وأن أمى أسماء بنت أبى بكر ، وأمه هند آكلة الأكباد ، وجدى الصديق ، وجده المشدوخ ببدر ورأس الكفر ، وعمتى خديجة ذات الحظ ، وعمته أم جميل حمالة الحطب ، وخالتى عائشة أم المؤمنين ، وأنا عبدالله، وهو معاوية ».

ويصر معاوية أن يأخذ البيعة لابنه ، وتعوزه الحيلة ، وعندما كان يستمع إلى آراء نفر من الصحابة ، تصدَّى له عبدالله بن الزبير ، وهو يعرض عليه اقتراحًا حول الخلافة ، وعلى معاوية أن يختار حلا من الحلول التى سبق أن مرت على المسلمين، وهو أن يترك الخلافة بالخيار، أى يختار الناس خليفتهم بلا وصية من أحد، كما فعل رسول الله ﷺ، فقد مات ولم يأمر لأحد بالخلافة أو يجعلها فى واحد بعيد عن أقاربه، أو كما فعل أبوبكر عندما أوصى باختيار عمر بن الخطاب ، أو يتركها للاختيار من ستة من المرموقين ، كما فعل ابن الخطاب على ألاَّ يكون من بينهم أحد من أقاربه. وقد أقر الناس هذا الرأى ، ولم يُجْدِ ذهب معاوية وسيفه.

وتمضى الأيام ، وينجح معاوية فى أن يولى ابنه يزيد مقاليد الأمور ، ولم يكن يزيد الذى يمكن أن تصل قامته إلى مستوى الخلافة الإسلامية بمسئولياتها الجسام ، وتأخذ الأمور مسارا آخر ،

فإذا بالحسين بن على يثور على ما صارت إليه الأمور ، وإذا به يندفع صوب العراق؛ ليتصدى ليزيد بعد أن أرسل إليه أهل العراق يبايعونه ويعلنون استعدادهم لنصرته.

ويذهب سبط الرسول متوجهًا نحو العراق ، ولكنه يُحاصَر فى كربلاء ، ثم تكون مذبحة رهيبة ارتكبها جنود يزيد ، عندما قتلوا آل الرسول ﷺ و وذبحوا الحسين بعد أن جاهدهم جهادًا شجاعًا، ولم يكتفوا بذبح سبط الرسول ﷺ، بل مثلوا به.

وترك هذا الحادث أثرًا كبيرًا فى النفوس ، فقد استبشع الناس انتهاك حرمات آل البيت ، وهم الذين قال الله -سبحانه وتعالى- فيهم:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وبدأ عبدالله بن الزبير يعود مرة أخرى إلى معركة السياسة ، وقرر التصدى لبنى أمية ، واستطاع أن يجابههم ، وأعلن نفسه خليفة، وكانت مكة مقرا لهذه الخلافة التى امتدت فضمت بجانب الحجاز مصر وخراسان واليمن والكوفة بعد أن بايعه أهلها على أن يكون خليفة لهم.

وظل يناوئ الحكم الأموى، إلى أن تولى الخلافة عبدالملك

ابن مراون ، الذى قرر القضاء نهائيا على ابن الزبير مهما كلفه ذلك. وأرسل الحجاج بن يوسف الثقفى جيشًا كبيرًا من أهل الشام ، وحاصروا مكة ، وضربوا الكعبة بالمنجنيق ، وحاصروها حصارًا طويلاً، وانفض الناس عن ابن الزبير. وهنا يسجل التاريخ صورة من أروع صور النضال ، فى إطار مشرق جذاب يتجلى فى هذا الحوار الرائع بين عبدالله بن الزبير وأمه العظيمة أسماء بنت أبى بكر عندما عرض عليها الموقف وانفضاض الناس من حوله ، ويسألها النصيحة فتقول له:

«أنت أعلم بنفسك. إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو، فاصبر حتى تموت فى سبيله ، ولا تمكن رقبتك من غلمان بنى أمية.

وإن كنت تعلم أنك أردت الحياة ، فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك».

قال الابن البار فى هذه الساعات الرهيبة التى يعيشها تحت الحصار الظالم:

« والله يا أماه ما أردت الدنيا ، ولا ركنت إليها ، وما جُرْتُ فى حكم الله أبدًا ، ولا ظلمتُ ولا غدرتُ ».

وقال لها : « إننى أخاف أن يُمثِّل القوم بى».

قالت الأم العظيمة:

« لا يضر الشاة سلخها بعد ذبحها».

وتوجَّهَ الرجل الشجاع ليواجه الموت ، وأمه ترنو ببصرها إلى السماء: « اللهم ارحم طول قيامه فى الليل ، وظمأه فى الهواجر، وبره بأبيه وبى.

اللهم إنى أسلمته لأمرك ، ورضيت بما قضيت ، فأثبنى فى عبدالله ثواب الصابرين الشاكرين».

واستشهد البطل، وأبى الحجاج إلا أن يصلب الجثمان.

وذهبت الأم العظيمة التى اقترب عمرها من المائة خاشعة أمام جسد ابنها العظيم. وعندما تقدَّمَ إليها الحجاج مناديًا : يا أم، قالت بنت الصديق بكل شموخ:

« لست لك بأم ، وإنما أنا أم هذا المصلوب على الثنية».

وعندما علم عبدالملك بما فعل الحجاج أمره بدفن جثمان عبدالله.

وتنتهى أحداث حياة هذا البطل الذى تربى فى بيت الإيمان والتوحيد ، وجاهد فى الله حق الجهاد ، محاربًا بسيفه أعداء الله فى الخارج ، ومن حاولوا أن يحولوا حكم الشورى فى الإسلام

إلى حكم ملكى مطلق ، ومات شهيدًا . وبقيت مبادئه وقيمه التى تمسَّكَ بها نور هداية لكل جيل يرى فى هذا السلف العظيم قدوة ومثالاً .

ويرى فى الاستشهاد فى سبيل المثل العليا غاية حتى يسود الحق ، وترتفع راية العدل ، ولا يصح إلا الصحيح .

وهذا ما يدعو إليه الإسلام: أن يعيش الإنسان فى ظل مجتمع تظله مبادئ الإسلام وقيمه ، ولا ينبغى السكوت على باطل ، أو الصبر على ضيم.

***

عاش مجاهدا ومات مظلوما

قتيبة بن مسلم

قتيبة بن مسلم

بطلنا هذا من نوعية عجيبة من الرجال ، عاش للجهاد وحب دينه، وكتب لنفسه تاريخًا مجيدًا ، وقبل أن يكتب لنفسه هذا المجد العريض الذى سجله له التاريخ كبطل واجه الأخطار وصمد لها ، وسبح فى بحارها ، وحقق ما كان يصبو إليه من انطلاق الإسلام ليشمل شعوبًا بعيدة عن مركز الخلافة فى دمشق ، وينشر بين ربوع الوثنية دين الإسلام ، فهو لا يبغى مجدًا لنفسه ، ولكنه يبغى مجداً لعقيدته.

يوم أبى إلا أن ترفع راية التوحيد على هذه البلاد النائية فى جنوب الاتحاد السوفييتى، ويضم إلى رقعة الإسلام بلادًا مثل سمرقند وبخارى ونيسابور وغيرها من هذه البلاد رغم بعد المسافة ووعورة الطرق. بل إن طموحه حدا به إلى التطلع لغزو الصين ورفع راية التوحيد تحت سمائها.

وكان سيتحقق له ذلك لولا ما ألم به فى أخريات عمره من ظروف سياسية قاسية ، فتعرَّضَ لمحنة فادحة راح ضحيتها ، ولم يتحقق أمله هذا العظيم.

إن هذا البطل الذى فتح هذه البلدان التى خرج منها فيما بعد علماء من ألمع علماء المسلمين فكرًا واجتهادًا وتصوفًا هو قتيبة بن مسلم الباهلى، وباهلة التى ينتسب إليها هذا القائد الفذ من قبيلة مغمورة من القبائل العربية لم يكن لها ذكر ، فلم يبرز منها من تفتخر به هذه القبيلة بين القبائل الأخرى ، ولم يبرز منها إلا هذا الفارس ووالده مسلم بن عمرو الذى كان شجاعًا مقدامًا. وما أكثر ما هجا الشعراء فى الجاهلية هذه القبيلة باعتبارها لم تُخرج أبطالا فى حومة القتال ، أو شعراء ذاع صيتهم بين الناس.

ولولا أن الإسلام قد نهى عن التفاخر الكاذب ، وحض على أن يتحلى المسلم بقيم الإسلام التى لا ترى فضلاً بين إنسان وآخر، مهما كان جنسه إلا بالتقوى؛ لولا ذلك لظلت هذه القبيلة بعد الإسلام تبكى جراحها التى سببتها أوهام الجاهلية.

وقد شب قتيبة بين قبيلته ، ورأى والده يعشق الفروسية ، ويُجيد ركوب الخيل ، فقلد الصبى والده ، وتعلم الفروسية وفنون القتال ، وكأن القدر كان يدخره ليوم يحقق فيه للإسلام انتصارات خالدة على الزمان ، انتصارات يمتد تأثيرها أجيالاً وأجيالاً . ويشب الفتى جريئًا مقدامًا جسورًا ، محبا لخوض أعتى المعارك.

وهذه الشجاعة قربته من الحجاج بن يوسف الثقفى ، فقد هال

هذا الشاب أن يرى فرق الخوارج تؤرق الناس ، ويحاولون فرض أفكارهم على المجتمع الإسلامى كله ، ولم ترقه هذه الأفكار ، ولم تستهوه هذه الجرأة التى اشتهروا بها ، كما أنه استاء من تصرفاتهم الحمقاء فى محاولاتهم فرض آرائهم بالقوة لا بالاقتناع.

والخوارج هم هؤلاء الفئة من الناس الذين ضغطوا على الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أن يقبل التحكيم فى معركة صفين بينه وبين معاوية عندما أوشك الإمام على أن ينتصر على جيش الشام بقيادة معاوية بن أبى سفيان .. يومها عرض عمرو بن العاص وقد -رأى الهزيمة قاب قوسين أو أدنى - على معاوية أن يرفع جنوده المصاحف على أسنة الرماح طلبًا لتحكيم كتاب الله.

يومها أيقن الإمام على أن الأمر كله خدعة ، وأن معاوية يريد أن يحصل على فرصة من الوقت للاستعداد لجولة جديدة ، ولكن فريقًا من جنوده أصر على التحكيم - تحكيم كتاب الله - وأذعن الإمام لهذا الرأى وهو غير مقتنع به.

واختار معاوية عمرو بن العاص ليمثله فى التحكيم ، واختير موسى الأشعرى ليمثل الإمام عليا ، واستطاع عمرو أن يخدع أبا موسى الأشعرى ، ويقنعه بضرورة خلع كل من على ومعاوية،

وأن يختار المسلمين خليفة جديدًا ، حتى تنطفئ نيران الفتن.

وجاء وقت إعلان النتيجة ، ولم يستمع أبو موسى الأشعرى لمن أشار عليه أن يعلن رأيه بعد عمرو،وأعلن خلعه للإمام ، بينما أعلن عمرو بن العاص تثبيته لمعاوية. وما كاد ينتهى الأمر على هذا الحد حتى اعترض هؤلاء الذين فرضوا التحكيم على الإمام ، وقالوا إنه ما كان ينبغى أن يتوقف عن القتال ، وندموا على التحكيم ، ثم قرروا أن يقيموا دولة دينية ، الحكم فيها لله وحده، وحاول الإمام على إقناعهم بالعودة إلى صفوف جيشه ، وأرسل إليهم عبدالله بن عباس لإقناعهم ، ثم ذهب هو بنفسه إلى «حروراء» لإقناعهم ، فاقتنع البعض وأصر البعض على رأيه.

وبعد التحكيم أصر هؤلاء الخوارج على أن يكوِّنوا دولة ينفذ فيها حكم الله ، حيث استطاع الإمام على أن يلحق بهم هزيمة عند «النهروان» ، وقد كانوا فى حروبهم فى غاية الجرأة والشجاعة وكانوا يهتفون «الجنة .. الجنة». وظل الخوارج يهددون الدولة الإسلامية حتى بعد استشهاد الإمام على - رضى الله عنه - على يد واحد منهم هو عبدالرحمن بن ملجم عندما طعنه وهو ذاهب لصلاة الصبح بسيف مسموم .

وكان الخوارج قد أعدوا خطة لقتل كل من على ومعاوية

وعمرو بن العاص، ولم تنجح مؤامراتهم إلا فى قتل الإمام.

دعوة الخوارج هذه لم ترُقْ لقتيبة بن مسلم ، ورأى فى حركتهم إعاقة للفتح الإسلامى ، وتفريقًا لكلمة الإسلام. ومن هنا حث الحجاج بن يوسف الثقفى على التصدى لهم والتخلص منهم. واستطاع الرجل أن يقنع الخليفة أن يخرج بنفسه لقتالهم.

وكان قائدهم «شبيب» جريئًا للغاية ، ولكن الحجاج استطاع إنزال الهزيمة بهم. وفى الوقت نفسه لفتت أنظاره شجاعة قتيبة بن مسلم وحرصه على الموت واستبساله فى المواجهة حتى رجحت المعركة لصالح الحجاج ، وقرر أن يكون قتيبة من المقربين إليه ، يدخره للأيام العصيبة.

ودانت للبطل الفرصة عندما أوعز الحجاج إلى الخليفة عبدالملك بن مروان أن يولى إمارة خراسان قتيبة بن مسلم بدلاً من يزيد بن المهلب. وهناك اتبع قتيبة سياسة جديدة تختلف عن سياسة سلفه الذى كان يعتمد كلية على العرب دون الفرس؛ مما أوغر صدور الفرس الذين يرون أن يزيد فى تفرقته بين الفرس والعرب يبتعد عن روح الإسلام؛ لأن الإسلام لا يحبذ العنصرية ، ولكنه ينبذها ويحاربها ، بل ويحرمها ، فليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ، هكذا قال رسول الله ﷺ ، فما بال اليزيد بن المهلب

لا يعتمد عليهم ، ولا يشاورهم فى أمر ، بل ويخالف سنة المصطفى عندما يفرق بين العرب وغيرهم!

ومن هنا فقد استقبلوا قتيبة عندما علموا منه نية الاستعانة بهم فى أمور الحكم والحرب استقبالاً حسنًا، ولم يضيع قتيبة فرصة ، ولا سمح لنفسه بأن يضيع وقتًا، فأمله أن يمتد الإسلام ، ويشمل أراضى جديدة ، ينشر فيها نور الله ، وينشر الوحدانية فى بقاع ما تزال تعيش تحت أوهام الوثنية وضلال الشرك.

إنه يتخذ جنوده من المسلمين فرسًا وعربًا مكتسحًا أراضى ما كانت تخطر على بال أحد من المسلمين ، فيضم أرمينية وبخارى والتركستان، وإذا بأمراء هذه البلاد وهم يرون هذه الانتصارات يشعرون بأنهم لا حيلة لهم أمام قوة المسلمين الضارية إلا بالاستسلام.

وقد أساء الحجاج متصورًا أن الهدف الذى أرسل إليه قتيبة هو نشر الإسلام ، وليس مجرد اكتساح أراضٍ والاستيلاء عليها وأخذ الجزية. وهذا المعنى لا يخفى عن قتيبة ، ولكنه كان يعيش أرض المعركة نفسها، ويعرف أنه فى حاجة إلى اكتساب الوقت ليعرف أرض المعركة جيدًا ويعرف دروبها ، ومن ثم يرسم الخطة للمعركة الفاصلة التى يستطيع من خلالها أن يقهر أعداءه ، ويحقق النصر

الطريق المؤدى إلى هذا الهدف الكبير ، فلم يكن الاستسلام إذعانًا للإسلام، ولكن محاولة من هؤلاء الأعداء أن يكسبوا الوقت ويعرفوا عن قرب مدى قوة المسلمين.

وقد حدث بالفعل أن تجمع ملوك ورؤساء هذه البلاد ، وحاولوا ضرب قوات المسلمين ، ولكن قتيبة قاومهم ببسالة منقطعة النظير ، ثم عبر النهر الذين كانوا يتصورن أن يحول دون تقدم المسلمين ، وواصل زحفه نحو بخارى، وحرص أن يكون كالصقر لا يغفل عما يحيط به من مكائد الأعداء ، ويتصدى لهم ببسالة وشجاعة لا تعرف الخوف ولا التردد ، موقنًا أن الله معهم، وأن النصر من عند الله ، وأنه مهما تحالف أعداء الله ، فإن الله على نصر المسلمين لقدير، فهو لم يذهب إلى ميدان الجهاد إلا ابتغاء رضوان ربه ، ولم يذهب بحثًا عن شهره أو مجد، وإنما ذهب لينشر نور الله ، ولو كره المشركون.

وكان يدرك أن «نيزك» حاكم «باذغيس» يكيد للإسلام رغم ادعائه أنه دخل الإسلام ، ولكنه كان يتظاهر بذلك؛ ليعرف قوة المسلمين عن قرب ، ويتابع أخبارهم ويتلمس أماكن الضعف فى صفوف المسلمين، واتضحت نواياه عندما خرج يجمع الحكام، والملوك من حوله ، ويبث فى أعماقهم كراهية المسلمين ،

وحضهم على حربهم.

وكان نيزك قد تحصن فى مكان يصعب الوصول إليه فى هذه الأماكن الموحشة الدروب والمسالك ، ولكن قتيبة استطاع أن يجند عددًا من مسلمى نيسابور، واقتحم مكان هذا الحاقد على الإسلام، وألحق به هزيمة ماحقة رغم سقوط مئات الشهداء.

وتابع زحفه حتى خوارزم ، ثم زحف نحو سمرقند، فحاصرها وضرب أسوارها بالمنجنيق ، حتى سقطت هى الأخرى تحت أقدام المجاهدين ، فدخلها قتيبة بن مسلم وبنى بها مسجدًا، وشعر الجميع أن الحصون لا تجدى أمام الإصرار على نشر مبادئ الحق وقيم الخير والجمال.

وظل قتيبة يؤدى واجبه فى ميدان القتال كمجاهد لا يبغى إلا وجه الله ، وفى نفس الوقت كان يوقن تمامًا أن الإسلام ليس مجرد انضمام الأرض لتستظل برايته ، ولكن حتى يصبح لهذه الفتوحات معنى لا بد من نشر الإسلام ، فبنى المساجد ، واصطحب من العلماء من يشرح للناس الدين الجديد وما يحمل من قيم ومبادئ قادرة على أن ترسم السعادة للبشر فى دنياهم وأخراهم.

وإذا كان الناس فى هذه الأماكن يعتقدون فى الأوثان فيعبدونها

من دون الله ، وبعضهم الآخر كان متأثرًا بالفرس قبل دخلوهم الإسلام فعبدوا النار ، فكان عليه أن يثبت لهم أن هذه الأصنام وهذه النار لا تنفع ولا تضر، فكان يحرق بنفسه الأصنام ويحطمها أمام الناس ، ويطفئ هذه النيران المقدسة وهو يقول لهم:

إن كانت هذه آلهة فيمكنها أن تضره ما دام قد دمرها أمامهم.

ولم يحدث له أى ضرر، ومن ثم فهى أحجار صماء بكماء لا تنفع ولا تضر، وأن هذه النيران التى يوقدونها بأيديهم لا تنفع هى الأخرى ولا تضر؛ بدليل أنه أطفأ نيرانها المتأججة وها هو بينهم معافًى لم يحدث له ضررا.

وهكذا بدأ الناس يدخلون فى دين الله. ولم يكن الدخول فى الإسلام بالأمر الهين واليسير ، ولكن بدأ الإسلام ينتشر ببطء ، وكان الدافع وراء انتشاره ما فى الدين نفسه من قيم ترغم معتنقه على التمسك به ، كما رأى الناس فى هؤلاء المجاهدين قدوة حسنة فى السلوك والأخلاق والتعامل ، ومن هنا انتشر الإسلام فى هذه البقاع التى ظهر من أهلها من كانوا أعلام الفكر الإسلامى، والذين تركوا بصمات لا تُنسَى فى تاريخ الإسلام.

ولا يستطيع أى مؤرخ أن ينسى أن وراء هذه الفتوحات الحجاج

بن يوسف الثقفى نفسه ، وما قدمه للفاتح العظيم من معونات ومدد ورسم خطط. إلا أنه بوفاة الحجاج والخليفة الوليد بن عبدالملك، شعر الفاتح الكبير أنه لن يكون على وفاق مع الخليفة الجديد سليمان بن عبدالملك ، رغم السنوات الثمانية التى قضاها لم يهدأ له جفن ولا غمضت له عين وهو يقود جيوش الإسلام فى ظروف مناخية ، وجغرافية بالغة القسوة والضراوة.

كان قتيبة يعد العدة لاقتحام أرض الصين نفسها ونشر الإسلام بين ربوعها ، بل إنه أرسل إلى ملكها ينذره بأنه سوف يقتحم بلاده لو لم يدخل فى الإسلام أو يدفع الجزية وهو صاغر ، فعل ذلك القائد الشجاع بإيمان المؤمن العميق، رغم أنه يعلم تمامًا أنه لا يعرف ظروفه مع الخليفة الجديد ، وهل سيتركه يواصل زحفه الساحق وينشر نور الإسلام فى أماكن ما كانت تخطر ببال أحد ، ويتناسى تصفية الحسابات فى هذه الظروف الصعبة؛ لأنه يعلم أنه كان يحقد عليه؛ لأنه كان شديد الولاء للوليد بن عبدالملك ، ورغم أن الخليفة الجديد هو أخو الخليفة الراحل ، فإنه لم يكن صافى الصدر لقتيبة وآخرين من كبار الفاتحين العظام فى عهد بنى أمية ، أو بالأخص فى عهد أخيه الوليد.

وحدث ما توقَّعَه قتيبة بن مسلم ، فقد أمر الخليفة بعزله وهو

فى أوج انتصاراته ، وعودته إلى دمشق ، فخيمت سحابات من الحزن والأسى على عين البطل الجسور ، وأخذ يدبر الأمر ويدرس مستقبله. إن الحزن يعتصر قلبه ، فهو قاب قوسين أو أدنى من تحقيق انتصارات رائعة ، وها هو قد وجد أن طموحاته قد انتهت وأن الخليفة يستدعيه لدمشق.. لن يقدم له أكاليل الغار.. ولن يقدم له شكره على جهاده فى سبيل الإسلام ، ولكنه سيزج به فى أعماق السجون.

وارتسمت علامات استفهام كثيرة فى رأس الفتى: هل يمكن أن يكون هذا جزاءه؟

وهل يمكن أن يكافأ بعد هذا الجهاد الطويل بأن يكون سجينًا فى حجرة مظلمة فى قاع أحد السجون؟

وهل يجدى دفاعه أمام الخليفة؟ وأى دفاع؟ وعن أى جريمة؟ إنه لم يرتكب جريمة ، ولكنه حقق انتصارات ورفع رايات الإسلام فى أماكن تبعد آلاف الأميال عن دمشق. ها هو الآن مطلوب لأن يكون رهين حجرة مظلمة ، وهو الذى كان يصول ويجول فى بقاع شاسعة تمتد امتدادًا رهيبًا فى القارة الآسيوية.

وقرر أن يقاوم هذا القرار الظالم مهما تكن العواقب ، وليمت فى ميدان جهاده بدل أن يموت حبيسًا تحت قبو مظلم رطب.

وانتهت حياته وهو يقاوم من جاء يقدمه للخليفة ، فقد أصابه سهم طائش أودى بحياة البطل العظيم.

واستشهد مسلم بن قتيبة ، وظل ما قدمه لنا مضرب المثل فى كل العصور . . إنسان عاش مجاهدًا بالله وفى سبيل الله، ونشر نور الله فى هذه الأصقاع البعيدة التى عرفت التوحيد على يد هذا البطل الذى عاش مجاهدًا ، ومات مظلومًا، واحتسب أجره على الله.

***

بطل بلاط الشهداء

عبدالرحمن الغافقى

عبدالرحمن الغافقى

بطل بلاط الشهداء

ما أكثر الأحداث التى مرت بالأمة الإسلامية فى مختلف العصور!

وما أكثر الصور المشرقة التى مرت بهذا التاريخ! وما أجدرنا اليوم أن نستعيدها لنرى كيف حفر أبطال الإسلام بأظافرهم وسط الصخور ليكونوا أمجادًا ، وليحققوا انتصارات ، ويجعلوا كلمة الله هى العليا وكلمة ما دونه هى السفلى !

وكثيرًا ما يستغرقنى هذا التاريخ ، وأتوقف أمامه كثيرًا ، وأنا أشاهد من خلاله تطورات أمتنا الإسلامية عندما كانت تقف عند القمة ، وعندما تنحدر نحو السفح ، وهى تبنى حضارات ، وهى تكافح من أجل حريتها واستقلالها. وما أكثر عبرَ التاريخ!

المهم أن نعى ونفهم عظات التاريخ؛ حتى لا تتكرر أخطاء الماضى، ونستفيد من دروسه؛ لأن الإنسان لا يعيش كما يقولون إلا الماضى والمستقبل؛ لأن الحاضر مجرد لحظة عابرة سرعان ما

تصبح ماضيًا، أى تاريخًا.

وبطلنا الذى سوف نسوق قصة كفاحه وجهاده العظيم هو عبدالرحمن الغافقى ، إنسان تربى على مائدة التابعين ، وتعلم على يد ابن عمر رضى الله عنه ، وتفتحت عيناه على واقع مشرق، فهوى يرى الأمة الإسلامية قد حققت انتصارات تلو انتصارات، فقد تغلبوا على قياصرة روما وأكاسرة الفرس ، وورثوا ملك كسرى وإمبراطورية قيصر ، ونور الإسلام أضاء الدنيا بتعاليمه وقيمه وسمو غاياته ، لا تستطيع قوة أن توقف زحفه الساحق.

تاريخ عظيم مجيد يسطره أبطال الأمة الإسلامية فى كل مكان.

فها هو عقبة بن نافع بعد أن وصل بجيوشه إلى شاطئ الأطلنطى، يخوض بفرسه مياه المحيط ، ويشخص ببصره إلى السماء قائلاً:

«اللهم إنى لم أخرج بطرًا ولا أشرًا. وإنك لتعلم أنى أطلب السبب الذى طلبه عبدك ذو القرنين ، وهو أن تُعبَد ولا يُشرَك بك. اللهم لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضًا لخضته فى سبيلك».

ولكن انتصارات عقبة بن نافع سرعان ما انحسرت عندما

أصيب الجيش الإسلامى بنكسة ارتد على أثرها إلى برقة ، واستشهد عقبة. ولكن سرعان ما استرد المسلمون ما فقدوه بعد ذلك، وتطلعت أحلامهم إلى الشاطئ الآخر .. إلى أوربا ، حيث استطاع موسى بن نصير وقائده الجسور طارق بن زياد فرض السيطرة الإسلامية على الأندلس نفسها، وردد الزمان كلمات طارق وهو يحرق سفنه؛ حتى يستبسل جنوده للقتال ، ولا يبقى أمامهم إلا الفوز أو الشهادة ، وقال كلماته الخالدة: «أين المفر؟ العدو أمامكم والبحر من ورائكم».

كل هذا وعاه عبدالرحمن الغافقى ، وكانت من أمانيه أن يمتد الإسلام ، وينشر نوره عبر أوربا ، وأن يضم فرنسا وغيرها من دول أوربا إلى الإسلام ، بل كان يتمنى نفس الحلم الذى كان يحلم به موسى بن نصير أن يصل إلى مقر الخلافة فى دمشق عن طريق أوربا بعد أن يضم فرنسا وإيطاليا، ويعبر مضيق الدردنيل إلى الشام فدمشق.

طموحات تصل إلى حد الخيال ، ولكن الإيمان فى الأعماق ، والهدف المحدد يقصران الطريق لتحقيق الأمال التى تصبح بعد ذلك فى دائرة الواقع المحسوس.

وقرر عبدالرحمن أن يذهب إلى الأندلس ليلعب دورًا مهما

وبارزا فى تاريخ الإسلام.

وجد عبد الرحمن الغافقى أن مستقبله السياسى على أرض الأندلس ، وأنه من الممكن أن يؤدى أدواراً بارزة فى خدمة دينه ، فهو إنسان حنكته الحياة ، وخبراته العسكرية تؤهله لأن يقدم خدماته فى سبيل العقيدة ، ووجد أن هذا الميدان يمكن أن يؤتى ثماره لو قام بدور فى اتساع رقعة الإسلام وتحقيق حلمه أن يمتد الإسلام إلى ما وراء جبال البرانس ، إلى فرنسا التى كانت تسمى بلاد «الغال» ، وما وراءها.

وقد أعجبه شخصية «السمح بن مالك الخولانى» الذى تقلَّد أمور الأندلس ، وأعاد إليها وجهها الإسلامى المشرق، بعد أن قضى على الخلافات القبلية والفتن التى كانت قد استشرت فى الأندلس. إنه يريد أن يجمع الشمل؛ حتى يتمكن من أن يعيد أمجاد الإسلام فى خوض المعارك فى سبيل العقيدة. وقد حقق بالفعل انتصارات مؤزرة عندما تقدَّمَ بجيوشه ليستولى على بعض المدن المهمة ، ويقيم ويدعم الحكم الإسلامى. وكان أعظم انتصاراته عندما ضم (اكتانيا) رغم عنف مقاومة العدو ، إلا أنه استشهد عندما تقدم نحو «تولوشه» واضطر الجيش الإسلامى إلى الانسحاب.

وكان عبدالرحمن الغافقى أحد جنود هذا البطل الذى دفعته تطلعاته الشجاعة إلى أن يمد نور الإسلام إلى أقصى مدى. وشاهد معه تلك المعارك التى سقط شهيدًا فى إحداها ، وقرر فيما بينه وبين نفسه أن ينتقم لقائده ، وأن يلقن أعداء الإسلام درسا لا يمكن أن ينسوه ، وأن يتابع الغزو مهما كانت أشواك الطريق؛ ليضم إلى الأندلس جنوب فرنسا ، ثم يواصل زحفه إلى أكثر ما يستطيع أن يضمه إلى رقعة الإسلام.

وكان عبدالرحمن الغافقى يمتاز بأنه على درجة عالية من التسامح الدينى كما يمتاز بأخلاقياته ، فجنوده كلهم سواء ، يستوى العربى مع البربرى. وأثناء ولايته أيضًا كان يعامل رعاياه المسيحين بما يتفق مع تعاليم الإسلام التى تعطى لكل ذمى حقوقه كاملة ، فلا اضطهاد ولا إرغام لأحد على ترك دينه .

وقد استعد البطل لملاقاة الفرنجة ، وكوَّن جيشًا قدره البعض بأربعمائة ألف مقاتل .

وكان يهدف إلى اجتياح بلاد الغال (فرنسا) .

وفى صيف عام ١١٤هـ (٧٣٢م) خرج من «نيلونه» فى محاولة لاجتياح ولاية (أكتانيا)، وتحقق له هذا النصر، وسقطت فى أيدى المسلمين ، ثم واصل زحفه الساحق، حتى أصبحت باريس على بُعد مائة ميل.

واستطاع أن يحتل نصف فرنسا الجنوبى من الشرق إلى الغرب.

وقد وصف المؤرخ الشهير جيبون هذه الغزوة بقوله:

«وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار. وقد كان اقتحام مثل هذه المساحة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى إيقوسيا ، فليس الراين بأمنع من النيل أو الفرات. ولعل أسطولاً عربيا كان يصل إلى مصب التيمز دون معركة بحرية، وربما كانت أحكام القرآن تُدرس الآن فى معاهد أكسفورد. وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة».

وقد شعر «شارل مارتل» بخطورة الزحف الإسلامى ، وكان قد أعد جيشًا ضخمًا مكونًا من الألمان والفرنسيين أو الغاليين ، وخاصة بعد أن استنجد به دوق «أوتو». وتقدم بهذا الجيش الكبير لملاقاة المسلمين بعد أن عبر نهر اللوار.

ويقول المؤرخون : إن الجيش الإسلامى كان قد هزته انتصاراته المتوالية ، كما أنه أثقل بكثرة الغنائم التى استولى عليها أثناء زحفه فى بلاد الغال ، وأنه من ثم كان حريصًا على هذه

الغنائم؛ مما جعل حماسه لحرب جديدة يفتر ويقل الدافع إليه بعد أن ظهرت بعض الخلافات بين قادة الجيش من عرب وبربر ، وكان من الصعب على عبدالرحمن الغافقى أن يطلب من جنوده التخلص من الغنائم والتفرغ للحرب، كما أن الوقت لم يكن سانحًا لتلك النزاعات بين البربر والعرب. وفى ظل الظروف بين جيش مُتخَم بالغنائم وجيش يفوقه عددًا ولا تثقله هذه القيود كان معركة شمال «بواتيه».

وقد استمرت المعركة ثمانية أيام. ويقول الرواة إن أحد قادة الفرنجة أراد أن يثير الفوضى بين جيش المسلمين ، فهاجم مؤخرة الجيش الإسلامى الذى يضم الغنائم ، وقد أشيع بين الجنود أن غنائمهم قد وقعت تحت سنابك جيوش الأعداء، فحاول البعض الرجوع إلى الخلف للدفاع عن هذه الغنائم؛ مما سبب الارتباك بين جيوش المسلمين ، وأصبح من العسير على عبدالرحمن الغافقى أن يعيد الجيش إلى تماسكه ، فقد دبت فيه الفوضى؛ مما أتاح للعدو فرصة أن يحقق انتصارًا عليه. ورغم الشجاعة التى بدأت فى مواجهة الفرنجة واستبسال قائدهم فى القتال ومحاولة عدم التزحزح ، فإن القائد العظيم ، وقد شاهد ما شاهد من الارتباك بين جنوده عندما حاول أن يعيد تنظيم جيشه، أصابه سهم، فسقط شهيدًا.

وما كاد يتناهى إلى سمع الجيش الإسلامى نبأ استشهاد قائده حتى تخاذلت قواه ، وحاول البعض أن ينجو ببعض الغنائم؛ مما أدى إلى فشل وارتباك فى القيادة ، ومن ثم تحقق نصر الأعداء ، وتوقف الزحف الإسلامى.

ويقول الدكتور عبدالعظيم رمضان فى كتابه «الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية»:

من الثابت أن شارل مارتيل لم يتبع الجيش الإسلامى ، خشية أن تكون وراء انسحابه حيلة أو خدعة ، بل اكتفى من الغنيمة بالنصر الذى حققه فى بواتيه، وعاد إلى الشمال معتزا بهذا الانتصار. وبذلك فإن النتائج التى أسفرت عنها هذه الهزيمة لم تخرج عن النتائج التى أسفرت عنها الهزيمتان السابقتان.

وهذا ما يعترف به مؤرخ فرنسى آخر هو «چوستاف لوبون» فيقول:

«إنه بعد بواتيه لم يستطع شارل مارتل طرد العرب من أى مدينة احتلوها عسكريا ، واضطر إلى التقهقر تاركًا لهم ما استولوا عليه من البلدان.

والنتيجة المهمة الوحيدة التى أسفر عنها انتصاره ، هى أنه جعل العرب أقل جرأة على غزو شمال فرنسا. ومثل هذه النتيجة ، وإن

كانت مفيدة ، إلا أنها لا تفى للتضخيم فى أهمية الانتصار الذى حققه هذا القائد».

وهذا هو التقييم الصحيح لموقعة بواتيه.

وإذا كان هناك مبرر قومى للمؤرخين الأوربيين الذين بالغوا فى تقدير أهمية انتصارات شارل مارتل ، فقد كان أجدر بالمؤرخين المؤرخين العرب ألا ينزلقوا إلى هذه المبالغة.

وفى الواقع إن الوجود العربى فى فرنسا استمر بعد هذا الموقعة لمدة تزيد على قرنين من الزمان؛ مما يبين تمامًا فساد تلك المبالغات، بل امتد بعد ذلك إلى إيطاليا وسويسرا.

ويقول الدكتور عبدالعظيم رمضان أيضًا معللاً هذه الهزيمة الإسلامية فى بواتيه، أو بلاط الشهداء بقوله:

« أما السبب الأساسى فيتمثل فى الفتن والاضطرابات الداخلية التى حلت بالأندلس والمغرب ، واستنزفت قوى العرب ، وصرف اهتمامهم عن استمرار الفتوح فى أوربا بالمعدل الذى كانت تسير به، ثم توقفت تمامًا لتبدأ عملية الانحسار. وهذا السبب هو الذى شجع شارل مارتل على معاودة الهجوم بعد ذلك واسترداد بعض ما فتحه العرب.

ثم استكمل ذلك ابنه شارلمان. ولذلك يذكر المؤرخ المستشرق (رينو) أن فتن العرب المستمرة قد خففت من خناق المسيحين فى الأندلس والمملكة الفرنجية ، وأنه لم يكن هناك من واقٍ لجنوبى فرنسا فى ذلك الوقت أحسن من وقوع العرب فى الخلافات فيما بينهم».

« كما يبرز حقيقة مهمة فى هذا الصدد ، فيقول إنه كان فى وسع العرب أن يفتحوا فرنسا عقب وفاة شارل مارتل سنة ٧٤١، وانشغال ابنه ببين فى توطيد ملكه فى شمال فرنسا ، فيجددوا حملاتهم على جنوبى فرنسا ، ويبلغوا فيها مرادهم. ولكن وقوع الشقاق بين العرب أنفسهم عاقهم عن كل عمل من هذا القبيل ».

وهذه صورة سريعة من هذه الموقعة التى يصورها المؤرخون الغربيون فى هالة عجيبة ، فيصورن فيها بطولة جيش شارل مارتل وكيف أنه استطاع أن يحمى أوربا المسيحية من همجية المسلمين. وهذا ضد ما يقوله ويعترف به المستشرقون المنصفون الذين يرون أن الإسلام كان نور هداية أضاءت لأوربا طريقها نحو الحضارة والمدنية والتقدم.

ولكن هزيمة المسلمين كان سببها انقسام المسلمين على أنفسهم. وهذه هى المأساة ، مأساة المسلمين فى كل العصور ، عندما يحول

عدم اتفاقهم إلى الإنطلاق نحو كل ما هو جدير بهم، وجدير بتاريخهم، وجدير بدينهم العظيم الذى رفعهم إلى قمة شامخة لم تكن تخطر ببال.

فالعيب دائمًا ليس فى الإسلام ، ولكن فى هؤلاء الذين يتركونه وراء ظهورهم طمعًا فى الدنيا ، أو مكسب أو عرض زائل.

***



وتبقى كلمة



إن التاريخ ليس مجرد حكايات حدثت فى زمن معين ثم اختفت بين طيات الزمن ، ولكن التاريخ يعيش دائمًا بيننا حتى لو كانت أحداثه قد حدثت فى الماضى ، فهو يترك بصماته دائمًا عبر المستقبل. فما عقائدنا وعاداتنا وتقاليدنا وحتى أفكارنا إلا موروثات هذا التاريخ.

والإنسان العاقل هو الذى يستفيد مما مر به من أحداث. والأمة الرشيدة هى التى تستفيد من ماضيها ، فتتجنب أخطاء الماضى، وتعمل على تفادى ما تردَّتْ فيه من سقطات؛ حتى يكون دافعًا فى بناء مستقبلها.

صحيح أن التاريخ لا يكرر نفسه ، بمعنى أنه من الصعب أن تتكرر الأحداث التى حدثت فى الماضى بنفس الصورة عبر العصور المختلفة للتاريخ ، ولكن يمكن الاستفادة من تجارب التاريخ فى رسم صورة لمستقبل أروع وأجمل .

ومن هنا لم يغالِ هيرودتس عندما قال:

« على الزمن ألا يمحو الماضى من تاريخ الإنسانية. وعلينا ألا ننكر على الأعمال العظيمة الرائعة حقها من الشهرة ».

ونحن نرى سيمون أو كلى يقول:

«أبرز العرب أنفسهم منذ أيام محمد على صعيد عالمى بفضل قوتهم العسكرية وتفوقهم العلمى. ولهذا لا يقل تفهم شئونهم ضرورة إن لم يزد عن تفهم أى شعب من الشعوب التى ازدهرت منذ أن سارت الإمبراطورية الرومانية فى طريق الانحلال!!»

إذن قراءة التاريخ وتفهمه ومحاولة دراسته قوة دفع إلى الأمام.

والذى يقرأ تاريخنا الإسلامى يرى صورًا فى غاية الإشراق .

كما يفتخر بعظمة هذا الدين العظيم الذى أبرز مثل هؤلاء الأبطال العظام الذين غيروا مسار التاريخ الإنسانى كله ،فكل واحد من هؤلاء الأبطال الذين سردنا قصصهم ، أو بمعنى أدق أشرنا إليهم مجرد إشارة أصبع لا يكفى كتابة هذه الإشارة عنه، ولكن يحتاجون إلى مجلدات.

وما أكثر الأبطال فى كل عصور التاريخ الإسلامى! وسواء أكان البطل هو الذى يصنع التاريخ كما يرى البعض ، أو أن الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هى التى تفرز الأبطال بما يتلاءم مع عصورهم كما يقول البعض الآخر ، فالذى لا شك فيه أن الإسلام هو الجناح الذى تَرعرعَ فى ظلاله الأبطال بقيمهم التى غرسها فى نفوسهم هذا الدين الذى جاء نور هداية للناس فى كل

العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والعجيب أن الأمة الإسلامية تبدو فى كثير من الأحيان أنها لا تستفيد من هذه التجارب ، فتضيعها التفرقة والخصام حتى قال البعض عنهم إنهم دائمًا يتفقون على ألا يتفقوا.

وهذه الفرقة هى الطريق إلى الهزيمة وإلى سيطرة الآخرين عليهم، أو على حد تعبير فريمان وهو يتحدث عن تاريخ العرب:

« لم يكن ثمة مؤمن صادق يشك فى أن خليفة رسول الله الحاكم الشرعى للعالم بأسره ، لكن الخلاف فى الرأى يتسع حول من هو الخليفة الشرعى».

وبنظرة إلى التاريخ نرى كيف وصل الزحف الإسلامى إلى أماكن لم تكن تخطر ببال أحد، يوم اتحدت كلمتهم ، وكان لهم هدف واحد يتجهون إليه بقلب واحد.

ولكن عندما لا يكون هناك هدف ، فإنهم يتوجهون إلى معاركهم بقلوب منكسرة ، موقنين بالهزيمة لا النصر.

وقد انتصروا يوم أيقنوا أن طريقهم إلى النصر هو التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، وأنه مهما كانت قوى العدو فلن يستطيع النفاذ إلى صفوفهم ، والنصر النهائى لهم مهما كانت صعوبة الطريق ووعورته وأشواكه.

لقد اتجه صلاح الدين الأيوبى بكل كيانه إلى الله تعالى، حتى تحقق انتصاره الرائع على الصليبيين.

واتجه قطز بكل إيمانه إلى الله تعالى، فكان انتصاره انتصاره الساحق على التتار.

وعرفنا الانتصار يوم عبرنا القناة، وحطمنا خط بارليف ، وقهرنا الجيش الذى كان يقول عن نفسه إنه لم يعرف الهزيمة عندما كان شعارنا «الله أكبر» لأننا ذهبنا إلى هذه الحروب ونحن موقنون بالنصر من عند الله. أما الذين يذهبون إليها وهم موقنون بالنصر لعدم اعتمادهم على الإيمان بالله ، فإنهم منهزمون قبل أن يطلقوا رصاصة أو سهمًا، أو على حد تعبير «أومان» وهو يتحدث عن الحرب فى العصور الوسطى:

«قد جاءوا إلى القتال يتوقعون الهزيمة. لذا فقد تحققت لهم، فلقد كانوا نصف مهزومين قبل أن تُوجَّه إليهم ضربة واحدة ».

وأنا أقول وأنا أطل بخيالى عبر نافذة التاريخ ، وأرى أمتنا الإسلامية عندما اعتلت القمم، وعندما انحدرت إلى السفح ، وعندما كانت نور هداية للبشر ، وعندما أحاطها ظلام التخلف والتبعية، عندما انطلقت تسود الدنيا كلها ، وعندما وقعت مصفدة فى الأغلال: إنها فى صعودها كانت تتجه نحو هدف واحدة ،

إلى غاية واحدة يدفعها إلى تحقيق النصر ، فتنتصر ، وإنها فى هبوطها كانت تصرفها الأهواء والأغراض والطموحات الشخصية، فتسقط نحو السفح مصفدة بقيود الهوان.

إن فى اتحادنا قوة.

وفى عودتنا إلى حظيرة الإسلام قوة أعظم..

وعندما تتحد أهدافنا تحت مظلة ما بثه ديننا العظيم من قيم نبيلة ومنهاج حياة مستنير ، سوف نعود إلى ما كنا عليه ، أمة عظيمة يخرج من بين أصلابها أبطال عظام.

***

مراجع الكتاب

١ - القرآن الكريم

٢ - الإصابة فى تمييز الصحابة . . ابن حجر العسقلانى.

٣ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة . . ابن الأثير.

٤ - البداية والنهاية . . ابن كثير.

٥ - الخلفاء الراشدون . . عبدالوهاب النجار.

٦ - رجال حول الرسول . . خالد محمد خالد.

٧ - حياة محمد . . د. محمد حسنين هيكل.

٨ - خاتم النبيين . . الشيخ محمد أبو زهرة.

٩ - مع الأبطال . . محمد رجب البيومى.

١٠ - الصراع بين العرب وأوربا منذ ظهور الإسلام إلى انتهاء ظهور الإسلام. د. عبدالعظيم رمضان.

١١ - الفتوحات العربية الكبرى . . چون باجوت جلوب (ترجمة خيرى حماد).

١٢ - فاطمة الزهراء . . عباس محمود العقاد.

١٣ - العبقريات . . عباس محمود العقاد.

فهرست الكتاب

رقم الإيداع ١٠٦٤٥/١٩٩٦
ISBN
977-5215-88-9

